

الآيات الكونية

ودلالتها على وجود الله تعالى

للداعية الشيخ محمد متولى الشعراوي

موقع الاسلامي

www.islammi.8m.com

أشرف عليه واعتنى به
أحمد الزغبي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:
الله سبحانه وتعالى وضع في كونه آيات تنطق بوجوده، وتشهد بعظمته، وتدل بأنه الاله الخالق،
ولقد خاطب الله تعالى كل العقول في كل الأزمان وحثها على التفكير والتعقل والتأمل في ملكته
سبحانه، فكل آيات الكون ناطقة بوحدانيته تعالى، وما العلم إلا كاشف لقدرة الله في الكون.
قال تعالى:{ذلکم الله ربکم، لا اله الا هو، خلق كل شيء فاعبدوه، وهو على كل شيء وكيل}
الأنعام 102.

في جولة تشمل مظاهر الحياة والكون، في الأنفس والأفاق يستعرض الإمام الداعية محمد متولي
الشعراوي أدلة وجود الله تعالى المادية عن طريق العقل فقط في قراءة هادئة هادفة، تخاطب
العقول والقلوب وتدعوها للتفكير ثم الإيمان.
 والله نسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجزي مؤلفه خير الجزاء انه سمى
مجيب.

الفصل الأول لماذا الأدلة المادية والكون

الأدلة نوعان

الله سبحانه وتعالى وضع في كونه آيات تتطق بوجوده، وتتطق بعظمته، وتتطق بأنه هو الخالق،
الجماد يشهد أن لا إله إلا الله، والنبات يشهد أن لا إله إلا الله، والحيوان يشهد أن لا إله إلا الله،
والإنسان يشهد أن لا إله إلا الله، وكل هذا يشهد بأدلة ناطقة لا تحتاج حتى إلى مجرد البحث
والتفكير والتعمق.

ولقد خاطب الله سبحانه وتعالى كل العقول في كل الأزمان، فجعل هذه الأدلة التي تنطق بوجوده من أول الخلق، ثم كلما تقدم الإنسان، وارتقت الحضارة، وكشف الله من علمه ما يشاء لمن يشاء، أزدادت القضية رسوخاً وازدادت الآيات وضوحاً، ذلك أن الله تعالى شاء عده أن يخاطب كل العقول، فجاءت آيات الله في الكون الناطقة بألوهيته وحده ليفهمها العقل البسيط، والعقل المرتفع في الكون، ولا اعتقاد أن أحداً يستطيع أن يجادل في هذه الأدلة ولا أن ينكر وجودها.

ولقد أوجد الله سبحانه وتعالى في هذا الكون أدلة مادية، وأدلة عقلية، وأدلة نصل إليها بالحواس، كلها تنتهي بوحدانية الله وجوده.

ولقد جعل الله الأداة الأولى للدراك وجوده هي العقل، تاعقل هو الذي يدرك وجود الله تعالى بالدليل العقلي الذي وضعه الخالق في الكون، ولكن مهمة العقل بالنسبة لهذا الوجود محدودة، ذلك أننا بالعقل ندرك أن هناك خالقاً مبدعاً قادراً، ولكننا بالعقل لا نستطيع أن ندرك ماذا يريد الخالق منا، وكيف نعبده، وكيف نشكره، وماذا أعد لنا من جزءٍ، يثبّت به من أطاعه، ويعاقب به من عصاه؟! فهذا كلّه فوق قدرة العقل.

ولذلك كان لا بد أن يرسل الله الرسل ليبلغونا عن الله، لماذا خلق الله هذا الكون؟ ولماذا خلقنا؟ وما هو منهج الحياة الذي رسمه لنا لتتبّعه؟ وماذا أعد لنا من ثواب وعقاب؟ فتلك مهمة فوق قدرات عقولنا، وتلك مهمة لو استخدمنا فيها العقل لما وصلنا إلى شيء.

وجاء الرسل ومعهم المعجزات من الله يصدق رسالاتهم ومعهم المنهج، وقاموا بابلاغ الناس، ولكننا لن نتحدث هنا عن معجزات تلالسل، وعما جاؤوا به، ولن نتكلّم عن أي شيء غيبي.

سنتحدث عن الماديات ووحدتها، ونتكلّم عن الأدلة الماديّة، بما فيها تلك الأدلة التي ترينا فتجعلنا نوْفَقُ أن الغيب موجود، وأن ما لا نراه يعيش حولنا، كل هذا بالعقل وليس بالإيمان.

فَاللَّهُ سَبَّانِهِ وَتَعَالَى وَضَعَ الدَّلِيلَ الْإِيمَانِيَّ فِي الْكَوْنِ كَمَا وَضَعَ الدَّلِيلَ الْعُقْلِيَّ، وَلَكُنَا سَنَحْكُمُ لِلْعُقْلِ وَحْدَهُ، لِيرِي النَّاسَ جَمِيعًا أَنَّ الْاحْكَامَ لِلْعُقْلِ يَعْطِينَا أَلَافَ الْأَدَلَّةِ.

هذه الأدلة هي من آيات الله، وكلها تشهد أن لا إله إلا الله.

و اذا أردنا أن نبدأ بالأدلة المادية فلا بد أن نبدأ بالخلق ، ذلك الدليل الذي نراه جميعا أمام أعيننا ليلا ونهارا ، ونلمسه لأننا نعيشه، فالبديعة هي أن هذا الكون بكل ما فيه قد وجد أو لا قبل أن يخلق الإنسان ، وتلك قضية لا يستطيع أحد أن يجادل فيها ، فلا أحد يستطيع أن يقول ان خلق السموات والأرض تم بعد خلق الإنسان ، بمعنى أن الإنسان جاء ولم تكن هناك أرض يعيش عليها ، ولا شمس تشرق ، ولا ليل ولا نهار ، ولا هواء يتفسه ، بل ان الإنسان جاء وكل شيء قد أعد له ، بل ان هناك أشياء أكبر من قدرة الإنسان خلقت وسخرت للإنسان تعطيه كل متطلبات الحياة دون مقابل ، وأشياء أخرى خلقت وسخرت للإنسان تعطيه ما يشاء ولكنها محتاجة إلى جهد الإنسان وعمله ، وذلك حتى تتم عمارة الأرض .

اذن فباستخدام العقل وحده لا أحد يستطيع أن يجادل في أن هذا الكون قد خلق وأعد للإنسان قبل أن يخلق الإنسان نفسه ، فإذا جاء الحق سبحانه وتعالى وقال لنا : { هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ، وهو بكل شيء عليم } البقرة 29.

لا يستطيع أحد أن يجادل عقليا في هذه القضية ، لأن الكون تم خلقه قبل خلق الإنسان ، فكيف يكون للإنسان عمل قبل أن يوجد ويخلق؟ وتأتي الآية : { واد قال رب للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة } البقرة 30.

نقول : ان هذا يؤكد الحقيقة بأن الكون أعد للإنسان قبل أن يخلق ، وهذه قضية يؤكدها العقل ، ولا يستطيع أن يجادل فيها .
وبذلك تكون قد وصلنا إلى النقطة الأولى ، وهي ان الله سبحانه وتعالى بكمال صفاته وقدراته قد خلق هذا الكون وأوجده ونظمه غير مستعين بأحد من خلقه ، ولا يحتاج أحد من عباده ، وانا جميعا أي البشر قد جئنا إلى كون معد لنا اعدادا كاملا .

ولكن قدرة هذا الكون لا تخضع لنا ولا لقدراتنا ، بل هي أكبر من هذه القدرات بكثير . فالشمس مثلا أقوى من قدرة البشر جميعا ، وكذلك الأرض والبحار والجبال ، اذن فلا بد أن تكون هذه الأشياء قد أخضعت لنا بقدرة من خلقها وليس بقدرتنا نحن ، ذلك أنها مسخرة لنا لا تستطيع أن تعصي أمرا ، فلا الشمس تستطيع أن تشرق وتغيب يوما حسب هواها لتعطى الدفء ووسائل استمرار الحياة لمن تريده ، وتنمنعه عن تشاء ، ولا الهواء يستطيع أن يهب يوما ويتوقف يوما ، ولا المطر يستطيع أن يمتنع عن الأرض فتendum الحياة وبهلك الناس ، ولا الأرض تستطيع أن تمنع عن انبات الزرع ، لا شيء من هذا يمكن أن يحدث ، ولا تستطيع البشرية كلها أن تدعى أن لها دخلا في مهمة هذا الكون ، لأنه لا خلق هذه الأشياء ولا استمرارها في عطائهما يخضع لرادرة البشر .

فإذا جئنا إلى الإنسان وجده هو الآخر لا بد أن يشهد بأن له خالقا موجودا ، فلا يوجد من يستطيع أن يدعى أنه خلق إنسانا ، ولا من يستطيع أن يدعى أنه خلق نفسه .

**

دليل الخلق

اذن قضية الخلق محسومة الله تعالى لا يقبل فيها جدل عقلي، فإذا جاء بعض الناس وقالوا: ان هذا الكون خلق بالمصادفة، نقل: ان المصادفة لا تتشي نظاما دقيقا كنظام الكون، لا يختل رغم مرور ملايين السنين.

وإذا جاء بعض العلماء ليدعى أنه كانت هناك ذرات ساكنة ثم تحركت وتكتفت واتحدت!! . نقول: من الذي أوجد هذه الذرات، ومن الذي حرکها من السكون؟
وإذا قيل ان الحياة بدأت بخلية واحدة من الماء نتيجة تفاعلات كيميائية، نقول: من الذي أوجد هذه التفاعلات لتصنع هذه الخلية؟

ونحن لن ندخل مع هؤلاء في جدل عقيم، وإنما نقول لهم: ان من اعجز الخالق، أنه أتبأنا بمحبئهم قبل أن يأتوا، وأتبأنا أكثر من ذلك أن هؤلاء يضلون، أي ليسوا على حق، ولكنهم على ضلال، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:
{ ما أشهدتم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متذمرين المسلمين عضدا } الكهف .51

وهكذا نرى من يأتي ليضل الناس بنظريات كاذبة عن أصل خلق السموات والأرض، وأصل خلق الإنسان، ومن يدعى أن أصل الإنسان قرد، وهي نظرية يملؤها الغباء، فنحن لم نشهد قردا يتتحول إنسانا، وإذا كان أصل الإنسان قردا، فلماذا بقيت القرود على حالها حتى الآن ولم تتحول إلى بشر؟! ومن الذي منعها أن يحدث لها هذا التحول ما دام قد حدث في الماضي؟! ولقد نسي هؤلاء أن الوجود لا بد أن يكون من ذكر وأنثى والا انقرض النوع، وهؤلاء يقولون لنا عندما ادعوا أن قردا تحول إنسانا، من أين جاء القرد الذي تحول إلى امرأة ليتم التكاثر !!

وبدون الدخول في جدل لا يفيد، نقول لهؤلاء جميعا: لقد جئتكم مثبتين لكلام الله، فلو أنه لم يأت من يضل بنظريات كاذبة في خلق السموات والأرض وفي خلق الإنسان، لقلنا: ان الله تعالى قد أخبرنا في القرآن الكريم، أنه سيأتي من يضل في خلق السموات والأرض وفي خلق الإنسان، ولكن لم يأت أحد يفعل ذلك، ولكن كونهم جاءوا وكونهم أضلوا يجعلنا نقول: سبحانه ربنا: ، لقد أخبرنا عن المسلمين وجاءوا فعلا بعد قرون كثيرة من نزول القرآن، فكان هؤلاء الذين جاءوا ليحاربوا قضية الإيمان، قد أثبتوها وأقاموا الدليل عليها.

على أننا نقول لكل من جاء يتحدث عن خلق السموات والأرض وخلق الإنسان مدعيا أن الله ليس هو الخالق، نقول له: أشهدت الخلق؟ فإذا قال لا، نسأله ففيه تجادل.

على أن قضية الخلق محسومة الله سبحانه وتعالى لأنه هو وحده سبحانه الذي قال انه خلق، ولم يأت أحد ولن يجرؤ أحد على أن يدعى أنه الخالق.
وإذا كان من يفعل شيئا يحرص على الإعلان عما فعل، فلا يوجد شيء صغير اخترعه البشر في الدنيا، الا وحرص صاحبه على الإعلان عن نفسه.

فإذا كان الذي اخترع المصباح قد حرص أن يعرف العالم كله اسمه وتاريخه وقصة اختراعه، أيكون الذي أوجد الشمس غافلا عن أن يخبرنا أنه هو الذي خلقها، وإذا كانت هناك قوة أخرى قد أوجدت أفلأ تعلن عن نفسها؟.

اذن فقضية الخلق محسومة لله سبحانه وتعالى، لأنه سبحانه وحده الذي قال انه خلق، حتى يأتي من يدعى الخلق، ولن يأتي، فان الله سبحانه وتعالى هو وحده الخالق بلا جدال، وحتى الكفار لم يستطعوا أن يجادلوا في هذه القضية، ولذلك يأتي القرآن في سورة العنكبوت فيقول: {ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله، فإني يؤفكون} العنكبوت .61.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

{ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله} العنكبوت 63. وهذه الآيات نزلت في الكافرين والمرجعيين، وهم رغم كفرهم وشراسة لهم لم يستطعوا أن يجادلوا في خلق الكون والانسان.

اذن فقضية الخلق محسومة لله، لأنه سبحانه وتعالى هو الذي خلق، وهو الذي أخبرنا بأنه هو الذي خلق.

ولكن القضية لا تقف عند الكون وحده، بل تمتد إلى كل ما في الدنيا حتى تلك الأشياء التي يقدر عليها الانسان، فأصل الوجود بكل ما فيه من خلق الله سبحانه وتعالى، والله سبحانه وتعالى يقول: {ذلم الله ربكم، لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبده، وهو على كل شيء وكيل} الأتعام 102. وما دام الحق سبحانه وتعالى قد قال أنه {خالق كل شيء} فما من شيء في هذا الوجود الا هو خالقه.

ولنأخذ هذه القضية في كل ما حولنا، في كل هذا الكون، لنأخذ مثلاً الخشب، شجرة الخشب التي تعطينا كل الأخشاب التي نستعملها في بيوتنا وأثاثنا إلى غير ذلك، هذه الشجرة من أين جاءت؟ تسأل تاجر الخشب من أين جاءت؟ يقول من السويد، وتسأل أهل السويد يقولون من الغابات، وتذهب إلى الغابة فيقولون لك من شتلت نعدها، وتسأل من أين جاءت هذه الشتلات؟ من جيل سابق من الأشجار، والجيل السابق من جيل سبقه، وتظل تمضي حتى تصل إلى الشجرة الأولى التي أخذ منها كل هذا، من الذي أوجد الشجرة الأولى؟ إنه الله، فلا أحد يستطيع أن يدعى أنه خلق الشجرة الأولى أو أوجدها من العدم.

فإذا انتقلنا إلى باقي أنواع الزرع لنبت عن التفاحة الأولى والبرتقالة الأولى، والتمرة الأولى، وحبة القمح الأولى، وشجرة القطن الأولى، نجد أنها وغيرها من كل ما تنتجه الأرض، كلها من خلق الله خلقاً مباشراً، ثم بعد ذلك استمر وجودها بالأسباب التي خلقها الله في الكون.

قد يقال: إن هناك تهجيناً وتحسيناً وخلطاً بين الأنواع لتنتج نوعاً أكثر جودة، نقول: إن هذا كله لا ينفي أن التمرة الأولى مخلوقاً مباشراً من الله، وقد يدعى بعض العلماء أنهم حسنوها أو استبطوا نوعاً جديداً، نقول لهم: كل هذا لا ينفي أن الوجود الأول من الله، وأنهم استخدمو ما خلق الله بالعلم المتاح من الله في كلما فعلوه، ولكن أحداً لا يستطيع أن يدعى أنه أوجد أي شيء في الأرض من العدم، فكل هذه الاكتشافات العلمية هي من موجود، ولا يوجد اكتشاف علمي واحد من عدم. فكل هذه الاكتشافات العلمية من موجود، ولا يوجد اكتشاف علمي واحد من العدم.

وإذا انتقلنا من النبات إلى الحيوان، نجد أن كل الحيوانات والطيور والحيشات بدأت بخلق من الله سبحانه وتعالى، وبخلق من ذكر وأنثى، وهذه هي بداية الخلق جميعاً، ولا يستطيع أحد أن يدعى أن خلق من عدم ذكر أو أنثى، وهذه هي بداية الخلق جميعاً، ولا يستطيع أحد أن يدعى أنه أنه

خلق من عدم ذكر أو أنتى من أي نوع من النبات أو الحيوان، والله سبحانه وتعالى يلفتنا في القرآن فيقول:
{ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون } الذاريات 49.

التحدي الالهي في الخلق

أنتا نريدهم، ونحن نتحدى علماء الدنيا كلها، أن يأتي عالم فيقول لنا انه أوجد من العدم، أو أنه خلق ذكراً أو أنثى من أي شيء موجود في هذا الكون، وما أكثر الموجودات في كون الله، وهنا تأتي الحقيقة القرآنية تتحدى في قوله تعالى:
{ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوه ذبابا ولو اجتمعوا له، وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب } الحج 73.
هذا هو التحدي الالهي الذي سيقى قائماً حتى يوم القيمة، فلن يستطيع علماء الدنيا ولو اجتمعوا أن يخلقوه ذبابة.

ولقد وصل الانسان الى القمر، وقد يصل الى المريخ، وقد يتجاوز ذلك ولكنه سيظل عاجزاً عن خلق ذباباً مهما كشف الله له من العلم، فلن يعطيه القدرة على خلق ذبابة، وهذا من اعجاز الله، لأنه وحده الذي خلق كل شيء، والعلم كاشف لقدرات الله في الأرض، ولكنه ليس موجوداً لشيء، ولذلك يقول القرآن الكريم:
{ ذلکم الله ربکم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه، وهو على كل شيء وكيل } الأنعام 102.
وبهذا نكون قد أثبتنا بالدليل العقلي أن الله خالق كل شيء في الدنيا، فإذا كان الله قد خلق من هم دون الإنسان من نبات وجماد وحيوان فكيف بالانسان بما له من ادراكات وعقل وفكر وتميز،
ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى:
{ ألم خلقوا من غير شيء ألم هم الخالقون } الطور 35.

وإذا كان كل شيء في هذا الكون من خلق الله سبحانه وتعالى، فإن قوانين اكون أيضاً، تلك هي القوانين التي يسير عليها الكون هي من وضع الله سبحانه وتعالى، إلا ما شاء الله أن يجعل للانسان فيه اختيار، فالقوانين التي يمضي عليها الكون هي من وضع الله، والأسباب التي تتم بها الأشياء هي من وضع الله، فالشمس والقمر والنجوم والأرض لا تتبع قوانين البشر، بل تتبع القانون اللهي، والذي خلقها وضع لها القانون الأمثل لتؤدي مهمتها في الكون.
فالشمس لها حركة كونية، ولها تحرك آخر في فلك خلقه الله لها، وكذلك القمر وكذلك الأرض، وكذلك الرياح، والنجوم، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:
{ الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان والسماء رفعها ووضع الميزان } الرحمن 1_7.
اذن فالشمس والقمر والنجوم تتحرك بحساب دقيق فلا تتأخر الشمس عن موعد شروقها ثانية ولا تتقدم ثانية منذ ملايين السنين، وكذلك القمر في دورته الشهرية، وكذلك النجوم في حركتها، يقول الله تعالى:
{ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون } يس 40.

أي أن كل هذه الأجرام لها فلك أو مسار معين تمضي فيه باذن الله. ولا تستطيع البشرية كلها أن تؤخر شروق الشمس ثانية، أو أن تقدمها ثانية، أو أن توقف دوران الأرض أو تسرع بها أو تبطئ إلى غير ذلك.
اذن ثبات قوانين الكون دليل على دقة الخالق وابداعه وعظمته وقدرته، وهذا ما لا يستطيع أحد أن ينكره.

دليل الثابت والمتحرك

يأتي الفلاسفة ليقولوا: ان الثبات وحده لا يعطي القدرة الكاملة للحق سبحانه وتعالى، ذلك أن الاله بقدرته لا بد أن يستطيع أن يخرج عن ميكانيكيته، فذلك هو دوام القدرة أو طلاقة القدرة، أما بقاء الثابت على ثباته، فان ذلك يعطي الدليل على دقة القدرة وابداع الخالق، ولكنه لا يعطي الدليل على طلاقة القدرة؟!

نقول: ان الله قد أعطى في كونه الدليل على طلاقة القدرة، ولكنه لم يعطه في القوانين الكونية، لأنه لو أطعاه في القوانين الكونية فأشرقت الشمس يوماً، وغابت أياماً، ودارت الأرض ساعات وتوقفت ساعات، وتغير مسار النجوم لفسد الكون!! اذن فمن كمل الخلق أن تكون القوانين الكونية بالنسبة للنظام الأساسي للكون ثابتة لا تتغير والا ضاع النظام، وضاع معه الكون كله، فلا يقول أحد: ان ثبات النظام الكوني يحمل معه الدليل على عدم طلاقة القدرة، بل هو يحمل الدليل على طلاقة القدرة التي تبقي هذا النظام ليصلح الكون.

والله سبحانه وتعالى لا يريد كونا فاسدا في نظامه، ولكنه يريد كونا يتناسب مع عظمة الخالق وقدرته وابداعه، فيبقى بطلاقه القدرة الثبات في قوانين هذا الكون، ويظهر بطلاقه القدرة أنه قادر أن يغير، ويفرق التواميس بما لا يفسد الحياة في الكون، ولكن بما يلتف خلقه إلى طلاقة قدرته. ولنتحدث قليلاً عن طلاقة قدرة الله تعالى في كونه، أول مظاهر طلاقة القدرة هي المعجزات التي أيد الله بها رسلاه وأنبياءه، ولكننا لن نتحدث عنها هنا، فنحن مع العقل وحده، لنؤكد بالدليل العقلي أن كل ما في الكون يؤكد أنه لا اله إلا الله، وأنه هو الخالق والموجد، ناتي إلى الأشياء التي تتطق بطلاقه القدرة وهي في كل شيء، وإذا جاز لنا أن نبدأ بالانسان فانا نبدأ بميلاد الانسان أو لا، والانسان ككل شيء في هذا الكون يوجد من ذكر وأنثى، فإذا اجتمع الذكر والأنثى جاء الولد، هذا هو قانون الأسباب، وقد يلتقي الذكر والأنثى ولا يأتي الولد، مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى: {لَهُ مِلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، يَهْبِطُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورُ، أَوْ يَزُوِّجُهُمْ ذَكْرًا وَأَنْثًا وَيَجْعَلُ مِنْ يَشَاءُ عَقِيمًا، أَنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} الشورى 42.

اذن الله سبحانه وتعالى جعل في قوانين الأسباب أنه متى تزوج الذكر والأنثى يأتي الولد، ولكنه أبقى لنفسه طلاقة القدرة فجعل هناك ذكراً وأنثى يتزوجان أعواماً ويلة لا يرزقان بالولد، فمع قوانين الأسباب كانت هناك طلاقة القدرة، ولم يجعلها الله سبحانه وتعالى عامة، بل جعلها في أمثلة قليلة لتألفتنا إلى طلاقة قدرته، حتى لا نحسب اننا نعيش بالأسباب وحدها.

طلاقة القدرة في الكون

ولم تخف طلاقة قدرة الله في خلق الإنسان عند هذا الحد، بل امتدت لتشمل كل أوجه الخلق، فالصل في الإيجاد هو من ذكر وأنثى، ولكن الله سبحانه وتعالى بطلاقته قدرته خلق إنساناً بدون ذكر أو أنثى وهو "آدم" عليه السلام، وخلق من ذكر بدون أنثى وهي "حواء"، خلقها من ضلع آدم عليه السلام، وخلق إنساناً من أنثى بدون ذكر وهو "عيسى" عليه السلام، وهذه كلها حدثت مرة واحدة لاثبات طلاقة قدرته، وهي لا تتكرر، لأنها تألفت إلى طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى، وأنه ليس على قدرته قيود ولا حدود، فهو جل جلاله خالق الأسباب، وقدرته تبارك وتعالى فوق الأسباب، على أن هناك أشياء كثيرة عن طلاقة قدرة الله بالنسبة للإنسان سنتحدث عنها تفصيلاً في فصل قادم.

نأتي إلى طلاقة قدرة الله تعالى في ظواهر الكون، لوأخذنا المطر مثلاً، الله سبحانه وتعالى بأسباب الكون جعل مناطق ممطرة في الكون، ومناطق لا ينزل فيها المطر، والعلماء كشفوا الله لهم من علمه ما جعلهم يضعون خريطة للأسباب تحدد المناطق الممطرة وغير الممطرة.

يأتي الله سبحانه وتعالى في لفته إلى طلاقة قدرته، فتجد المناطق الممطرة لا تنزل فيها قطرة ماء وتصاب بالجذب، وبهلك الزرع والحيوان، وقد يموت الإنسان عطشاً، بالرغم من أن هذه المناطق كان المطر ينزل فيها وربما سار في أنهار ليروي غيرها من البلاد التي لا ينزل فيها المطر. فنجد مثلاً منابع النيل التي هي مناطق غزيرة المطر، تأتي فيها سنوات جدب فلا يحدث الناس الماء، ونجد بلاداً كالولايات المتحدة وبلاط أوروبا يصيبيها الجدب في سنوات، ولا يحدث هذا بشكل مستمر، بل في سنوات متباude، لو أن المطر ينزل بالأسباب وحدتها ما وقع هذا الجدب في المناطق الغزيرة المطر، ولكن الله يريد أن يلفتنا إلى طلاقة قدرته وإلى أن الماء الذي ينزل من السماء ليس خاضعاً للأسباب وحدتها، ولكن الذي يحكمه هو طلاقة قدرة الله، حتى لا نعتقد أننا أخذنا الدنيا وملكتها بالأسباب، ولكن نعرف أن هناك طلاقة لقدرة الله سبحانه وتعالى هي التي تعطي وتنعم، وأنه جل جلاله فوق الأسباب وهو سبحانه المسبب بغير وبيطل كما يشاء.

فإذا جئنا إلى الزرع، ذلك الذي فيه عمل للإنسان، نجد مظاهر طلاقة القدرة، فالإنسان يزرع الزرع والله يعطيه كل الأسباب، الماء موجود والكيماويات متوفرة، والأرض جيدة، ثم بعد ذلك تأتي آفة لا يعرف أحد عنها شيئاً، ولا يحسب حسابها فتقتضي على هذا الزرع تماماً، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

{ وأحيط بثمرة فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول ياليتي لم أشرك بربِّي أحداً } الكهف 42.

ونحن نعرف أن الآفات تصيب كل مكان في الأرض لا يعلو عليها علم مهما بلغ، وهذا نعرف أن الأرض لا تعطينا الثمر بالأسباب وحدتها، ولكن بقدرة الله سبحانه وتعالى التي هي فوق الأسباب، لكيلا نعبد الأسباب وننسى المسبب وهو الله تعالى.

فإذا انتقلنا إلى الحيوان نجد طلاقة القدرة واضحة، فهناك من الحيوان ما تزيد قوته على الإنسان مرات ومرات، ولكن الله سبحانه وتعالى قد أخضعه وذله للإنسان، فتجد الصبي الصغير يقود الجمل أو الحصان ويضربه، والجمل مثلاً يستطيع أن يقضي عليه بضربة قدم واحدة ولكنه لا

ي فعل شيئاً ويمضي ذليلاً مطيناً ولا يرد على الإيذاء رغم قدرته على ذلك، ونجد الكلب مثلاً يحرس صاحبه ويدافع عنه لأن الله ذله له.

فإذا جئنا إلى الذنب أو إلى التعب من نفس فصيلة الكلب نجده يفترس الإنسان ويقتله، ولو أن هذا التدليل للحيوان بقدرة الإنسان لاستطاع كما ذلل الجمل والبقرة والكلب أن يذلل الذنب والتعب وغيرهما من الحيوانات، ولكن الله يريد أن يلفتنا إلى أن هذا التدليل بقدرته سبحانه وتعالى، إن العجان الصغير وهو حشرة ضئيلة الحجم يقتل الإنسان، دون أن يستطيع أن يذله، ليلتفتانا الله سبحانه إلى أن كل شيء بقدرته وجعل موازين القوة والضخامة تختلط، حتى لا يقال إن هذا الحيوان قوي بحجمه أو بالقوة التي خلقت له، بل جعل أضعف الأشياء يمكن أن يكون قاتلاً للبشر.

ثم نأتي إلى الجماد، الأرض من طبيعتها ثبات قشرتها حتى يستطيع الناس أن يعيشوا عليها، وبينوا مساكنهم، ويمارسوا حياتهم، ولو أن قشرة الأرض لم تكن ثابتة لاستحالة الحياة عليها، واستحالت عمارتها، والله سبحانه وتعالى يريد منا عمارة الأرض، ولذلك جعل قشرتها ثابتة صلبة، ولكن في بعض الأحيان تتحول إلى عدم ثبات، فتفجر البراكين ملقة بالحمم، وتحدث الزلازل التي تدمر كل ما على المكان الذي تقع فيه.

وبتقدير العلم ويكشف الله بعضاً من علمه لبعض خلقه ما يشاء، ولكن يبقى الإنسان عاجزاً على أن يتبنّى بالزلزال، ف يأتي الزلزال في أكثر بلاد الدنيا تقدماً ليواجه أهلها دون أن يشعروا بقرب وقوعه، بل أنه من طلاقة قدرة الله تعالى أنه أعطى بعض الحيوانات، التي ليس لها عقول تفكّر، ولا علم ولا حضارة، أعطاها غريرة الاحساس بقرب وقوع الزلزال، ولذلك فهي تسارع بمعادرة المكان أو يحدث لها هياج، إن كانت محبوسة في لاقفاص أو حظائر مغلقة، وذلك ليلتفتانا الله سبحانه وتعالى إلى أن العلم يأتي منه سبحانه وتعالى ولا يحصل عليه الإنسان بقدرته، فيعطي سبحانه من لا قدرة له على الفكر والكشف العلمي ما لا يعطيه لذلك الذي ميزه بالعقل والعلم.

لماذا؟ لنعلم أن كل شيء من الله فلا نعبد قدراتنا، ولا نقول: انتهى عصر الدين والإيمان وبدأ عصر العلم، بل نلتفت إلى أن الله يعطي لمن هم دوننا في الخلق علماً لا نصلّ نحن إليه، فنعرف أن كل شيء بقدرته وحده سبحانه وتعالى.

ومظاهر طلاقة قدرة الله في الكون كثيرة، فهو وحده الذي ينصر الضعيف على القوي، وينتقم للمظلوم من الظلم، وكل ما في الكون خاضع لطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى، على أن طلاقة القدرة في تغيير ما هو ثابت من قوانين الكون كلها ويحدث الدمار وتنتهي الحياة.

وذلك مصادقاً لقوله تعالى:

{إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتشرت وإذا البحار فجرت وإذا القبور بعثرت علمت نفس ما قدمت وأخرت} الانفطار 1_5

وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم، تتبيّناً بما سيحدث عندما تقوم القيمة.

اذن الذين يقولون: ان عظمة الله سبحانه وتعالى في خلقه هي الثبات والدقة التي لا تتأثر بالزمن، والتي تبقى ملايين السنين دون أن تختلط ولو ثانية واحدة، نقول لهم: هذه موجودة وانظروا إلى القوانين الكونية ودقتها وكيف أنها لم تتأثر بالزمن.

والذين يقولون: ان عظمة الحق سبحانه وتعالى في طلاقة قدرته في كونه، وألا تكون الأسباب مقيدة لقدرة الخالق والسبب، نقول لهم: انظروا في الكون وحولكم مظاهر طلاقة القدرة، وليس

هذه المظاهر مخفية أو مستوره، بل هي ظاهرة أمامنا جميعا، وليس في أحداث بعيدة عن حياتنا، بل هي تحدث لنا كل يوم.
وإذا صاح انسان من قلبه: (ربنا كبير)، أو (ربنا موجود)، أو (ربك يمهد ولا يهمل)، فمعنى ذلك أنه رأى طلاقة قدرة الله، تتصف مظلوماً، أو تنتقم من ظالم، أو تنصر ضعيفاً على قوي، أو تأخذ قوياً وهو محاط بكل قوته الدنيوية.

فالانسان لا يتذكر قدرة الله عندما يرى الكون أمامه يمضي بالأسباب، ذلك أن هذا شيء عادي لا يوجب التعجب، فانتصار القوي على الضعيف لا يثير في النفس اندهاشاً، والأجر المعقول للعمل شيء عادي، والأحداث بالأسباب هو ما يعيش الناس، ولكننا نتذكر قدرة الله تعالى اذا اختلت الأسباب أمامنا، وجاء المسبب ليعطيانا ما لا يتفق مع الأسباب ولا مع قوانينها.
في هذا الفصل استعرضنا بعض أسباب الوجود التي تثبت قضية الایمان بالدليل العقلي، ولكن الله سبحانه وتعالى يقول:

{وفي أنفسكم أفلأ تبصرون} الذاريات 21.
على أن بعض الناس ينظر إلى نفسه فلا يرى شيئاً، فما معنى هذه الآية الكريمة؟
هذا هو موضوع الفصل القادم.

الفصل الثاني يقول الله سبحانه وتعالى "وفي أنفسكم أفلأ تبصرون"

آيات الله في خلق الإنسان

هذه الآية يمر عليها كثير من الناس دون ان يتبعها الى الفيوضات والمعاني التي تحتويها. بل انك اذا سألت انسانا غير مؤمن ماذا يعرف عن هذه الآية الكريمة؟ فيقول لك: لا شيء في نفسي !!

فأنا انسان أولد وأكبر وأتزوج وأعمل وتنتهي حياتي وأموت. فماذا في نفسي؟ نقول له: لو أنك تدبرت لعلمت أن في نفسك آيات وآيات.. سذرك في هذا الفصل بعض هذه الآيات، لأن آيات الله في الإنسان كثيرة ومتعددة.

أول شيء هو قول الحق سبحانه وتعالى:
{ وَادْخُلْ رَبَّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ وَأَشْهُدْهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى، شَهَدْنَا أَنْ قَوْلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كَنَا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ } الأعراف 172 .

إذا قرأت هذه الآية يقول لك غير المؤمن: لم نشهد شيئاً ولم نرى شيئاً ولم نحس شيئاً! ونقول: بل شهدت، وأنت شهيد على نفسك في ذلك، كيف؟ الله سبحانه وتعالى عرفنا بأنه موجود، وعرفنا بشهادة ربوبيته وليس بشهادة الوهبية، ومعنى ذلك أن المؤمن والكافر يعلم في نفسه وجود الله، ولكن الكافر يحاول أن يستر هذا الوجود ليتحقق شهواته وما يريد ولو على حساب حقوق الآخرين، وللننظر إلى ما أحل الله وما حرم الله، ثم لننظر إلى النفس البشرية على عمومها لزوى ما تفعل، ولنعرف يقيناً أن هذه النفس تعرف ما أحل الله وتستريح له وتتسجم معه، وتعرف ما حرم الله فيصيبيها انزعاج واضطراب وذعر وهي ترتکبه، وأول هذه الأشياء هو العلاقة بين الرجل والمرأة.

إذا جاءك رجل وقال: أريد أن أختلي في حجرة ابنتك، ماذا تفعل به؟ قد تقتله، وإن لم تقتله قد تضربه، ويعينك على ذلك كل الناس، وسيجد فعله هذا استئثاراً عاماً من المؤمن وغير المؤمن. فإذا جاءك هذا الرجل وقال: أريد أن أتزوج ابنتك، فإنك تستقبله بالترحاب وتدعو الناس للترحيب به، وتعلن النباء على الجميع، وتعقد القرآن، وبعد عقد القرآن تتركه هو وابنته في الحجرة، وتتوافق على الخلوة بينهما.

ما الفرق بين الحالتين؟ بعض الناس يقول إنها وثيقة الزواج التي تحرر، فهل الفرق هو الورقة فعلاً؟ لا، الفرق هو الحلال والحرام، ما أحله الله وما حرم، ما أحله ينسجم مع النفس البشرية ويقبله كل الناس، وما حرمه الله تستكره كل نفس بشرية وتتفعل ضده.

كيف يحدث هذا؟ لأنك عرفت يقيناً منهج الحق والباطل، ومنمن عرفته؟ من الذي وضعه، ليس هذا فقط، بل انظر إلى انسان في شقة مع زوجته، يدخل مطمئناً تماماً يدخل أمام الناس إلى بيته، وإذا طرق الباب قام وفتح للطريق، وإذا جاء صديق استقبله باطمئنان، وإذا خرج إلى الشارع وأخذ زوجته معه أمام الناس جميعاً، انظر إلى نفس الرجل مع زوجة غيره، يغلق الأبواب ولنواخذ حتى لا يراه أحد، وإذا طرق الباب انزعج ولا يفتح، وإذا جاءه صديق أصيب بالذعر، وإذا خرج إلى الشارع مشي بعيداً عنها.

ما الفارق بين الحالتين؟ الفارق هو الحلال والحرام اللذان تعرفهما كل نفس، حتى تلك التي لم تقرأ شيئاً عن الدين، لأن الله تعالى قال: { وأشهدهم على أنفسهم ألسنت بربكم قالوا بلى }.

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى أوجه الحياة، لص ي يريد أن يسرق، يتأكد أولاً من أن الطريق خال، ولا يجرؤ أن يفعل ذلك إلا في الظلام أو بعيداً عن الناس، وبمجرد أن يأخذ ما يريد أن يسرقه ينطلق بسرعة وهو يتلفت يميناً ويساراً خوفاً من أن يراه أحد، ثم يبحث عن مكان يخفي فيه المسروقات، انفعالاً رهيبة في داخله تؤكد أنه يعرف أن ما يفعله أثم وخطيئة، لكن الإنسان عندما يريد أن يدخل بيته ليأخذ شيئاً دخل أمام الناس جميعاً ومشي باطمئنان، وحمل الشيء الذي يريد وهو لا يخشى أن يراه أحد، ذلك أنه يحس في داخله بأنه يفعل شيئاً لا يحرمه الله، الذي يأخذ رشوة مثلاً، يتلفت حوله يميناً ويساراً ويصارع بالخافئها، والذي يقبض مرتبه يفعل ذلك أمام الدنيا كلها.

وهكذا كل مقاييس الخير والشر، مقاييس الخير تتسمج معها النفس البشرية، وتحس بطبيعتها وراحتها، ومقاييس الشر تضطرب معها النفس البشرية وتحس بالفزع والذعر وهي ترتكبها، من الذي وضع في النفس هذا، أنها تعرف يقيناً هذه المقاييس التي وضعها الله لمنهجه في كونه، ومن الذي أعلم هذه النفس أن هناك مقاييس، وأن هناك لها، إلا أن تكون الآية الكريمة: { وادْأْذِ رَبَّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ طُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتِهِمْ وَأَشَهَّهُمْ أَلْسُنَتِ بَرَبِّكُمْ قَالُوا بَلِي، شهداً أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كَنَا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ } الأعراف 172.

هي التفسير الوحيد لمقاييس الخير ومقاييس الشر التي وضعت فينا بالفطرة، وبما أن هذا عطاء ربوبية، فإن الله سبحانه وتعالى رب الناس كل الناس، من آمن به ومن لم يؤمن، ولذلك وجدت في البشر كلهم.

نأتي بعد ذلك إلى نقطة ثانية، الله سبحانه وتعالى غيب، وغير المؤمن يقول أنا لا أؤمن إلا بما أرى، أنا هو غيب عنى فلا أؤمن به لأنني لم أشهده، والإيمان غير الرؤية، فأنت إذارأيتني أمامك لا تقول: أنا أؤمن أنني أراك، لأن الرؤية عين يقين ليس بعدها دلالة! ولا تقول أنا أؤمن أنني أجلس مع أصدقائي، ولا تقول أنني أؤمن أنني لست أرى الشمس مثلاً! ذلك هو عين اليقين، وهناك: "علم يقين"، "وعين يقين"، "وحق يقين".

فعلم اليقين هو الذي يأتيك من انسان تثق فيه وفي أنه صادق في كلامه، فإذا قال لك انسان مشهود له بالصدق أنا رأيت فلاناً يفعل كذا، فأنت تصدق بوثوّقك بمن قال، فإذا رأيت الشيء أمامك يكون ذلك "عين اليقين"، فالذّي يقول لك مثلاً إن هناك مخلوقاً نادراً في بلدة كذا فأنت تصدقه، لأنك تثق به، فإذا جاء معه بهذا المخلوق وأظهره أمامك أصبح علم اليقين عين اليقين، فإذا لمسته بيديك وتحسسته وتتأكد من اوصافه يكون هذا "حق اليقين".

ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى حين يخاطب غير المؤمنين عن جهنم يقول:

{ كلاً لو تعلمون علم اليقين لترتون الحجيم ثم لترونها عين اليقين } التكاثر 5-7.

أي أن كلاً منا سيرى جهنم بعينيه في الآخرة، ثم يقول سبحانه وتعالى: { وأما ان كان من المكذبين الصالين فنزل من حميم وتصليبة حريم ان هذا لهو حق اليقين } الواقعة 92-95.

أي أن الكفار حين يدخلون النار ويعذبون فيها سيكون ذلك حق اليقين، أي واقعاً يعيشونه وليس مجرد رؤية.

هذه هي الرؤية، أما الإيمان فهو تصديق بغير، فأنت تقول: أنا أؤمن أن ذلك حدث كما أراك أمامي، أي أنك لم تشهد ما حدث، ولكنك وصلت بالدليل والاقتناع إلى أنه قد حدث، وأصبح في نفسك كيقين الرؤية تماماً.

أين الروح في جسسك؟

غير المؤمنين يقول إن الله غيب وأنا لا أصدق إلا ما أرى! نقول: قبل أن تعلن هذا الكلام تذكر الآية الكريمة:
{وفي أنفسكم أفلأ تبصرون}.

وأنت في جسسك الروح هي التي تهبك الحياة والحركة، فإذا خرجت الروح من جسسك سكنت الحركة وانتهت الحياة.

اذن كل منا يعرف أن هناك شيئاً اسمه الروح، اذا دخل الجسد أعطاه الحياة، واذا خرج كمه توقفت الحياة، فمن منا رأى الروح؟ بل من منا يعرف أين موقعها من الجسد؟ أهي في القلب الذي ينبض؟ أو في العقل الذي يفكر؟ أو في القدم التي تتحرك؟ أو في العين التي ترى؟ أو في الأذن التي تسمع؟ أين مكانها بالضبط؟ وما هي الروح؟

أكبر علماء الدنيا لا يعرف عنها شيئاً، حتى ذلك العالم السويسري الذي جاء بالناس وهم يحتضرون ووضعهم على ميزان دقيق، وعندما أسلموا الروح وجد أن الجسد قد فقد بضع جرامات لحظة خروج الروح، فأعلن أن الروح لها وزن، أو أن لها كياناً مادياً وإن كان لا يزيد على غرامات، نقول ان هذا غير صحيح، لأن هذه الجرائم قد تكون هي وزن الهواء الذي خرج من الرئتين، ولم يدخل غيره، أ تكون بسبب توقف سريان الدم بالجسم.

اذن الروح، وهي موجودة في جسسك، غيب عنك، فأنت لا تعرف ما هي؟ ولا أين هي؟ وأنت لا تعرف كيفية سريانها في الجسم، والا قل لنا اذا أصيب الإنسان في حادث وبترت ساقاه، أين ذهبت الروح التي كانت في الساقين تعطيهما الحركة والحياة؟ ولكنك تستدل على وجود الروح مع أنها غيب عنك بأثارها في أنها تعطي الحياة والحركة لجسسك، ولكن هل وجود الروح في المخلوق الحي وجود يقيني؟ يقول أكبر علماء الدنيا الماديين: نعم، ولا يستطيع أحد أن ينكر ان الجسد الحي فيه الروح، وأن الجسد الميت قد خرجت الروح منه.

إذا فوجود الروح علم يقين مستدل عليها بأثارها، فهل اذا كان وجود الروح في جسسك يؤكّد لك يقيناً أنها موجودة مستدلاً على ذلك بالحركة والحياة التي تعطيها في الجسم، الا يدل هذا الكون كله بما فيه من اعجاز الخلق على وجود الله يقيناً؟ ألا تنظر إلى جسسك والروح فيه ثم تنظر إلى الكون لتسخدم نفس القانون؟ أم أنك في جسسك لا تستطيع أن تجادل، وفي الكون بعظامته تجادل؟! أليس هذا كذباً على النفس واحتقاراً لمهمة العقل!! ألا نتذمّر في معنى الآية الكريمة:
{وفي أنفسكم أفلأ تبصرون}؟!

قدرات الإنسان

ثم نأتي بعد ذلك إلى النقطة الثالثة، غير المؤمن يقول أنا سيد نفسي، أنا حاكم نفسي أفعل بها ما أشاء، نقول: هذا افتراء على الله، فجسسك هو ملك الله، وهو يفعل فيه ما يشاء إلا ما شاء أن يجعلك فيه مختاراً، وإذا لم تصدق ذلك فانتظر إلى جسسك.

القلب ينبض، فهل أنت الذي تجعله ينبض؟ وهل تستطيع أن توقفه قليلاً لستريح؟ أو تجعله إذا توقف أن يعود إلى الحركة مرة أخرى؟ وكيف يمكن أن يتبع القلب لرادتك، وهو ينبض وأنت نائم مسلوب الإرادة، ومن الذي يعطي الأمر للقلب لكي يقول نبضاته وأنت نائم، لأنك متوقف عن الحركة، و يجعله يسرع في النبض وأنت تقوم بأي مجهد تحتاج إلى سرعة حركة الدم في الجسم.

وحركة التنفس هل أنت التي تقوم بها؟ وإذا قلت نعم فكيف تنفس وأنت نائم؟ إنها حركة تتم بالقهر لا سلطان لك عليها، فإذا صدر لها الأمر الإلهي بأن تتوقف فلا أedisتطيع أن يعيدها. ومعدنك وما يحدث فيها من تفاعلات لهضم الطعام وأنزيمات تفرز عدد منعددة، أيتم هذا بارادتك؟ وأعاؤك وحركة الطعام فيها وامتصاص ما يفيد الجسم وطرد ما لا يفيد. أيحدث هذا بارادتك أم أنها تتم دون أن تدري؟

وكرات الدم البيضاء وهي تتصدى للميكروبات التي تدخل جسسك فترسل كرات معينة لتحدد ما يمكن أن يقضي على الميكروبات، ثم يقوم النخاع بتصنيع المواد المضادة فتقتضي على الميكروب فعلًا، أتدري أنت شيئاً عن هذه العملية؟ إن كل هذا م فهو لله سبحانه وتعالى، يقوم بعمله دون أن يتوقف، دون أن تدري أنت شيئاً عنه.

ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه خلق هذه الأجهزة البشرية م فهو له، والا لما استطاع الإنسان الحياة، ولا العمل، ولا أداء مهمته في عمارة الكون، والا فقل لي بالله عليك، لو أن قلبك يخضع لرادتك كيف يمكن أن تنام؟ إنك ستظل يقطأ ليسمرة القلب في النبض، لو أن معدنك تخضع لرادتك لاحتاجت إلى ساعات طويلة بعد كل وجية لتتم عملية الهضم، لو أن الدورة الدموية تخضع لرادتك، لما استطاع عقلك أن يستمر في الحياة وهو مشغول بمئات العمليات التي تتم كل دقيقة.

وهذا شاعت رحمة الله أن يجعل كل هذا بالقهر حتى تستطيع الحياة والسعى في الأرض، وحتى يمكنك أن تتمتع بحياتك.

إذا لا تقل أنا حر في جسدي، أو جسدي خاضع لي، فهذا غير صحيح علمياً وبالدليل المادي، فأنت م فهو في كل أجهزة جسسك، حتى تلك التي أخضعها الله لرادتك فهذا خضوع ظاهري وليس خضوعاً حقيقياً، ولقد شاعت حكمة الله أن يرينا هذا في الدنيا أمامنا بالدليل المادي، فأنت تبصر بعينيك، حتى لا تغير وتعتقد أن هذا الإبصار من ذائقك، وأنه خاضع لرادتك، أوجد الله سبحانه وتعالى من له عينان مفتوحتان ولا يبصر، وأنت تشفي بقدميك، ولكن الله سبحانه وتعالى أوجد من له قدمان ولا يستطيع أن يمشي، وأنت تحرك يديك وتتحرك وتتفاعل بهما ما تشاء، ولكن الله سبحانه وتعالى أوجد من له قدمان ولا يستطيع أن يمشي، وأنت تحرك يديك وتتفاعل بهما ما تشاء ولكن الله سبحانه وتعالى أوجد من له يدان ولا تستطيعان الحركة، وأنت تتحدث بلسانك وتسمع بأذنيك، ولكن الله سبحانه وتعالى أوجد من له لسان ولا يقدر على الكلام، ومن له أذنان ولا يسمع، كل هذه أمثلة قليلة وضعها الله سبحانه وتعالى في الكون، ليلفتنا إلى أنه ليس لنا ذاتية، وأن الأمر كله لله.

فإذا كنا نبصر بأعيننا فنحن نبصر بقدرة الله تعالى التي أعطت العين قوة الإبصار ونمسي بقدرة الله تعالى التي أعطت القدمين قوة الحركة، ونسمع ونكلم بقدرة الله التي أعطت اللسان قدرة

الكلام، والأذن خاصية السمع، ولو كان هذا بذاتية منا، ما استطاع أحد أن يسلينا النظر أ، السمع أو الحركة أو الكلام.

الاختيار والقدرة

بل إن الله سبحانه وتعالى أقام لنا الدليل على أنه حتى حركاتنا الاختيارية لا تتم إلا بقدرته، مثلاً إذا أردت أن تقوم من مكانك، كم عضلة تتقبض، وكم عضلة تتبسط، حتى تتمكن من القيام؟ ولكن نقوم من أماكننا ونحن لا ندري أي العضلات تتحرك وأليها لا يتحرك، بمجرد أن يخطر على بالنا لنقوم، هذه العضلات تتبسط، وهذه تتقبض بقدرة الله وليس بارادتنا، العملية التي تتم في عضلات الجسم ساعة القيام، ليس لنا في حركتها ارادة إلا أننا أردنا أن نقوم، وكذلك في المشي والجري وكل حركة نقوم بها.

اذن حركات الجسد كلها خاضعة لنا بارادة الله سبحانه وتعالى، الله هو الذي أخضعها لما نريد وجعلها تفعل ما نشاء، وهي تفعله دون علمنا بذلك، بل تفعله بشيفرة الهيبة وضعها الله في أجسادنا، فتتقبض وتتبسط العضلات فيتم كل شيء ونحن لا ندري.

ثم يقول الإنسان أنا مسيطر على جسدي أفعل ما أشاء، نقول لو كنت مسيطرًا حقيقة لعلمت ما يجري فيه، ولكن هذا الجسد مسخر لك بقدرة الله تعالى، ولذلك فهو يفعل لك ما ت يريد دون ان تدري، أو تحس كيف يتم هذا الفعل.

دليل الضحك والبكاء

بل أكثر من ذلك تحدياً من الله سبحانه وتعالى، يأتي الحق في كتابه الكريم ويقول:
{ وأنه هو أضحك وأبكي } النجم 43.

أكثرنا يمر على هذه الآية الكريمة ولا يلتفت إليها، ولكن هذه الآية فيها اعجاز من الله سبحانه وتعالى، يقول الحق سبحانه وتعالى:

{ وأنه هو أضحك وأبكي }

معناه أن الضحك والبكاء من الله، وكونه من الله سبحانه وتعالى يكون لجميع خلقه فالله حين يعطي، يعطي الخلق جميعاً ذلك هو عدل الله، فإذا نظرت إلى الدنيا كلها تجد أن الضحك والبكاء موحدان بين البشر جميعاً على اختلاف اغاثتهم وجنسياتهم، فلا توجد ضحكة إنجليزية وضحكة أميركية وضحكة إفريقية، بل هي ضحكة واحدة للبشر جميعاً، ولا يوجد بكاء آسيوي أو بكاء أسترالي، وإنما هو بكاء واحد، فلغة الضحك والبكاء موحدة بين البشر جميعاً، وهي إذا أصطنعت تختلف.

وإذا جاءت طبيعية تكون موحدة، ولذلك إذا أصطنع أحدها البكاء أو أصطنع الضحك فإنك تستطيع أن تميزه بسهولة عن ذلك الانفعال الطبيعي الذي يأتي من الله. ومن العجب أنك ترى مثلاً الفيلم الكوميدي الذي صنع في أميركا يضحك أنها أوروبا والذي صنع في آسيا مثلاً يضحك أنها أستراليا، بل إن هناك من اعطاهم الله موهبة القدرة على اضحاك شعوب الدنيا كلها، ولعل هناك نجوماً عالمية في فن الكوميديا تضحك العالم كله، وبعض الأفلام عاطفية تبكي العالم كله، وبعض الأفلام مثلاً إذا قدمته بأي لغة أبكي الناس، وهكذا تنزل أحياناً الرحمات من الله فتفيض العيون بالدموع، وأحياناً يريد الله أن يروح عن النفوس فتتعالى الضحكات.

ولكن قد يقول بعض الناس: إن هناك ما يضحك واحداً ولا يضحك الآخر، وأن هناك مشهداً يبكي إنساناً، في حين تتحجر الدموع في العيون فلا يبكي إنساناً آخر في نفس الموقف!! نقول إنك لم تفهم الآية، قوله تعالى:

{ وأنه هو أضحك وأبكي }.

ليس معناه أن الناس تضحك معاً وتبكي معاً، ولكن معناه أن الإنسان لا يستطيع أن يضحك نفسه، ولا أن يبكي نفسه عن شعور صادق بلا اصطناع، ولكن ذلك من الله، ولذلك انعدمت فيه الارادة البشرية، وليس لكل واحد منا ضحكة تميزه، بل نحن نضحك جميعاً بلغة واحدة، وليس لكل واحد منا بكاءً يميزه، بل نحن نبكي جميعاً بلغة واحدة، وليس أي واحد منا قادراً على أن يضحك ضحكة طبيعية بارادته لأن يقول لك ابني سأضحكك الآن فيضحكك، ولا يستطيع إنسان أن يبكي بكاءً طبيعياً لأن يقول أنا سأبكي الآن فيبكي، إلا أن يصطنع الضحك أو البكاء بشكل غير طبيعي. ولكن يأتي الضحك والبكاء من الله حين يكون طبيعياً، ولأنه يأتي من الله فهو موحد بين البشر جميعاً، فإذا كنت لا تستطيع أن تضحك نفسك أو تبكي نفسك، فكيف تدعى أنك سيد نفسك، ولماذا لا تسلم لخالقك؟.

فإذا كان هذا هو الشأن في الجسد البشري، فلمن باشره الذي هو يملك كل خيوطك فإذا كنت لا تؤمن بجنته ولا تريد ثوابه، فاخش عقابه، وإذا كنت لا تؤمن بالأخره فاخش عقابه في الدنيا، فهو الذي يملك كل خيوط حياتك ويستطيع أن يفعل بك ما يشاء.

على أن الله سبحانه وتعالى له لفتات أخرى، يلفتان لقدرته وعظمته وجوده، إذا كنت تتأنى على الإيمان بالله وتقول أنا سيد نفسي، فإذا جاءك قدر الله بالمرض فامنعه على نفسك، وقل لن

أمراض، وإذا جاءك قدر الله بالموت فامنحه عن نفسك، وقل لن أموت، وإذا جاءك قدر الله في مكروره كأن تصاب في حادث، أو تسقط من مكان فتنهش عظامك فقل لن أسقط.

هذا هو قهر الذي لا تستطيع أن تقف أمامه، وتقول سأفعل ولا أفعل، لأن الله تعالى لم يعطك الاختيار في أن تفعل أو لا تفعل في الأقدار التي تقع عليك، فقدر الله عليك ينفذ رغم ارادتك، وأنت خاضع لقدر الله سواء رضيت أو لم ترض، ففي الكون أحداث تقع لا تملك فيها اختيارا.

بعض الناس يجادل في هذا ويقول: إن الإنسان القوي يستطيع أن يصنع قدره! نقول إن القرآن الكريم قد رد على هؤلاء في قول الحق سبحانه وتعالى:

{**قُلْ لِلَّهِ مَالِكِ الْمَلَكِ تَوْتِي الْمَلَكُ مِنْ تَشَاءُ، وَتَعْزِيزُ الْمَلَكِ مِنْ تَشَاءُ، وَتَذْلِيلُ الْمَلَكِ مِنْ تَشَاءُ.**}

ولا بد أن نلتقي إلى قول الحق سبحانه وتعالى: {**وَتَنْزَعُ الْمَلَكُ مِنْ تَشَاءُ**}.

إي أنه لا يوجد إنسان يتخلى عن المنصب والملك والجاه بارادته بل لا بد أن ينزع منه انتزاعاً ولذلك تأتي الثورات والانقلابات، لتنزع الملك من أولئك الذين اعتقادوا أنهم ملوك الدنيا، وأنهم قادرون على أن يفعلوا ما يشاءون بمجرد كلمة أو أمر أو إشارة، فإذاً الله سبحانه وتعالى لينزع منهم هذا رغماً عنهم، فتجد الواحد منهم الذي كان يحتمني به الناس عاجزاً على أن يحمي نفسه، يهرب من مكان إلى آخر، وتجده وهو المعتر بالدنيا يتمنى لو أخذ الناس كل ما يملك، وأبقوا على حياته.

إن هذا يحدث ليافتنا الحق جل جلاله إلى أنه لا أحد يأخذ الملك أو المركز العالمي بارادته وتخطيطه، وإنما هي أقدار الله يجريها الله على خلقه، فإذاً أتي أمر الله نزع منه كل شيء، ولو كان الأمر بذاته لما استطاع أحد أن ينزعه منه، ولا يوجد إنسان في هذا الكون يستطيع أن يدعى أنه في منعة من قدر الله، فإذاً كانت هذه هي الحقيقة فهي الدليل المادي على أن الإنسان تحكمه قدرة خالقه، وأنه لا يستطيع لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله.

أفعال الإنسان

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى فعل الإنسان و عمله الدنيوي، تجد بعض الناس يقول: إنني سأفعل كذا وكذا، نقول له: إنك أعجز من أن تفعل إلا أن يشاء الله، فال فعل محتاج إلى زمان، ومحتاج إلى مكان، ومحتاج إلى مفعول به، وأنت لا تملك شيئاً من هذا كلّه، فإذا جئنا إلى الفاعل فأنت لا تملك حتى اللحظة التي تعيش فيها، ولا تتضمن أن يمتد بك العمر ثانية واحدة، حتى ولو كانت كل الشواهد الصحيحة تدل على ذلك، لا يوجد من لا يشكو من شيء، ثم يسقط فجأة ميتاً، ويقال جاءت جلطة في المخ، أو سكتة قلبية، أو أصيب بھبوط حاد في الدورة الدموية.

هذه كلها أسباب، ولكن السبب الحقيقي هو أن الأجل قد انتهى، مصداقاً لقوله تعالى:
﴿فإذا جاء أجلهم لا يستاخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ الأعراف 34.

اذن ساعة أن صدر الأمر من المسبب وهو الله جل جلاله انتهى العمر.
ومن العجيب أنك ترى أكبر أطباء القلب يموتون بأمراض القلب، وأكبر أطباء المخ تنتهي حياتهم بمرض في المخ، فإذا ملكت اللحظة التي تعيش فيها، وبقيت حتى ساعة اتمام الفعل، فإنك قد تصاب بمرض يقعدك عن الحركة، فلا تستطيع اتمام الفعل، هذا بالنسبة للفاعل.
فإذا جئنا للزمن فأنت لا تملك الزمن، ولكنه هو الذي يملكك، ولذلك فإنه قد يأتي زمان التنفيذ ففجأاً يحدث يمنعك، كأن يصاب ابنك في حادث مثلاً، أو يموت أحد أقربائك، أو تضطر اضطراراً إلى سفر عاجل لمهمة ضرورية، أو يقبض عليك في جريمة أو في اتهام. اذن فأنت لا تملك الزمن ولا تستطيع أن تقول إنني في ساعة كذا سأفعل كذا.

وبالنسبة للمكان فقد تختار مكاناً لتبني فيه عمارة مثلاً، فتأتي لتجد أن هذا المكان قد استولت عليه الدولة لمنفعة العامة، أو قد ظهر له ورثة لم تكن تعرفهم فأوقفوا العمل، أو أن تقرر أن يقام في وسطه طريق، أو أن الأرض تحتها مياه جوفية تجعلها غير صالحة للبناء.

وإذا جئنا للمفعول به فقد يرفض الذي تطلب منه القيام بالعمل به، وقد لا تجد عمالاً ليقوموا بالتنفيذ، وقد لا يأتي المقاول الذي انفقت معه وقد لا يحضر الموظف الذي سيعطيك الرخصة لبدء العمل. اذن فأنت لا تملك شيئاً من عناصر الفعل كلها، ولذلك طلب منك الله سبحانه وتعالى أن تتأدب وتعطي الشيء لأهله، وتتبّعه إلى الفاعل الحقيقي، فقال سبحانه وتعالى:
﴿ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله، واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى يهدين ربى لأقرب من هذا رشدآ﴾ الكهف 23، 24.

تأتي بعد ذلك إلى معجزة أخرى في النفس البشرية، تلك هي معجزة القرآن الكريم والقرآن فيه اعجاز كثير. ولكننا نتحدث هنا عن الاعجاز القرآني في النفس البشرية كل إنسان منا له طاقة وقدرة عقلية، فالمتعلم طاقتة العقلية أكبر من لم ينل حظاً من العلم أو من الأمي، وهؤلاء جميعاً لا يمكن أن يجتمعوا عقلاً ليشهدوا شيئاً واحداً، وكل واحد منهم ينسجم مع هذا الشيء نفس الانسجام، فإذا كانت مثلاً هناك محاضرة في فرع من العلوم فلا يستطيع أن ينسجم معها إلا ذلك الذي يفهم في هذا الفرع، أما إذا دخل إليها عدد من الذين لم يقرأوا عن هذا العلم فان الانسجام يضيع، ذلك يحدث في كل فرع من فروع الدنيا.

ولتكن إذا جئت إلى القرآن الكريم، وهو كلام الله، تجد أن كل النفوس البشرية المؤمنة تنسجم معه، لا تجمعها رابطة الإيمان، إنك تدخل إلى المسجد تجد فيه المتعلم ونصف المتعلم والعالم وقد جلسوا معاً جميعاً يستمعون إلى القرآن الكريم، وتتجدهم جميعاً منسجمين مع القرآن، تهتز نفوسهم له، وترتاح ملائكتهم إليه، لا فرق بينهم، حتى ذلك الذي لا يعرف معنى الفاظ القرآن الكريم، تجده غالباً يستمع وهو منسجم وبهتز من داخله، وتنقام الصلاة فييق الجميع في انسجام وراء الإمام، تختفي الفوارق الدنيوية بينهم، ولكن تجمعهم رابطة الإيمان، فيصلون جميعاً بانسجام، لأن ملائكتهم التي خلقها الله فيهم منسجمة ومتفقة مع كلام الله، فلا تلحظ فرقاً ولا ترى إلا مساواة إيمانية.

بل أنه من العجيب أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد في العالم الذي يمكن أن يحفظه الإنسان بدون فهم، فتجد الطفل الصغير عمره سبع سنوات وربما أقل من ذلك ومع هذا يحفظ القرآن بكامله، أيمكن لهذا الطفل الصغير غير المكلف أن يستوعب معاني القرآن الكريم؟ بالطبع لا، ولكن الإيمان الفطري في داخله يجعله يحفظ القرآن عن ظهر قلب ويتلوه، لأن هذا الإيمان من الخالق وهو الله سبحانه وتعالى، ولذلك تنسجم النفس البشرية وهي في أولى مراحلها مع كلام الخالق، أليس هذا اعجاز نقف عنده أيافتنا إلى الله سبحانه وتعالى، وأنه هو الخالق وهو الموجد، فإذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"ما من مولد إلا يولد على الفطرة، فأبواء يهوداته أو ينصراته أو يمجسانه" البخاري ومسلم.

فإننا صدقنا يا رسول الله، وأكبر دليل على ذلك هو انسجام فطرة الإنسان مع كلام الله.

بل وأكثر من ذلك، يأتي الله سبحانه وتعالى ليりينا أن الإنسان هو هو وأنه سيأتي به يوم القيمة دون أن يختلط أحد مع أحد، ويتسائل الدينون لا يؤمنون: كيف يمكن أن يأتي الإنسان بنفسه يوم القيمة دون أن يختلط أحد مع أحد؟

نقول: إن الله سبحانه وتعالى رحمة بعقولنا قد أعطانا الدليل في الدين، ولن ندخل في تكوين الإنسان، ولا في أشياء غيبية، ولكننا نأخذ بالدليل المادي وحده، فالبشر وهم بلايين، كلهم مخلوقون على هيئة واحدة، ولكن كل واحد منهم مميز عن الآخر، فالإب يعرف ابنه من بين ملايين البشر، والإب يعرف أباه وأمه بين ملايين النساء والرجال بمجرد النظر، بمجرد اللمسة تستطيع أن تخرج ابنك أو أباك أو أمك من بين الناس جميعاً هذا تمييز للإنسان لا يشتراك فيه بقية الخلق، فأنت لا تستطيع أن تمييز بقرة عن بقرة أو جمل عن جمل، أو أي مخلوق آخر إلا الإنسان. ولذلك فإن رعاة الغنم يرقمونها أو يضعون عليها علامات مميزة حتى يعرفوها، ولكنهم لا يضعون على أولادهم علامات حتى يميزوهم عن غيرهم من ملايين الصغار.

الإنسان والتمييز

اننا نجد الانسان مميزا ببصمة الأصابع، لا تتشابه بصمة ابهام انسان مع انسان آخر رغم وجود بلايين البشر، ليس هذا فقط ولكن لكل منا بصمة رائحة لا تتشابه مع انسان آخر ونحن لا ندركها، ولكن كلب الشرطة المدرب هو الذي أعطاه الله ملكرة التمييز فيشم رائحة الآخر، فيخرج هذا الانسان من بين عشرات بل المئات.

وكلما أعيدت التجربة قام كلب الشرطة باخراج نفس الشخص، بل انه مع تقدم العلم وجد أنه لكل انسان بصمة صوت تميزه عن الآخر، وبصمة فك خاصة بأسنانه، كل هذا ليلفتنا الحق سبحانه وتعالى الى أنه ميز كل انسان بمميزات لا يشارك فيها أحد حتى يأتي به يوم البعث هو هو نفسه.

بل ان الله سبحانه وتعالى وضع فينا العدل بالنسبة لأبنائنا رغم انة يحب أصغر أبنائه أكثر من الكبار، لماذا؟ لأن الابن الصغير مهما امتد العمر بالأب سيقضي في رعاية أبيه سنوات أقل من الكبار، ولذلك أعطاه حنانا أكبر ليعوضه عن هذه السنوات، حتى يكون خير الأب وعطفه قد وزعا على أبنائه بالعدل، فمنهم من أخذ عطفا أقل وسنوات أكثر، ومنهم من أخذ سنوات أقل وعطفا أكثر.

إلى هنا نكون قد وصلنا إلى بيان بعض الفيوضات التي شملتها الآية الكريمة:
{وفي أنفسكم أفلأ تبصرون}.

فالآية أعطتنا بوضوح الدليل المادي من النفس البشرية بأنها تعرف الله بالفطرة، وتعرف الخير والشر بالفطرة، مصداقاً لقول الله تعالى:
{ فألهما فجورها وتقواه } الشمس 8.

وأن هذه النفس بالدليل المادي لا تملك لذاتها نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله، وأنها منسجمة مع الإيمان بفطرة خلقها، ومسجمة مع كلام الله بفطرتها الإيمانية.
على أن الدليل المادي لوجود الله لا يشمل النفس البشرية وحدها، بل يشمل كل شيء في الكون، وكل ما في الكون ينطق بأنه لا إله إلا الله، وفي كل شيء دليل، وسنبدأ في الفصل القادم بالدليل الغبي.

الفصل الثالث الدليل الغيبي

الغيب نوعان

قد يكون عنوان هذا الفصل فيه تناقض ظاهري مع موضوع الكتاب، ذلك أننا لا نتحدث هنا عن الغيب، ولكننا نتحدث عن الأدلة المادية التي يتحكم فيها العقل وحده ويشهد بها، ولذلك قد يقال: ما دمتم تتحدثون عن الدليل العقلي على وجود الله، فلماذا لجأتم إلى الغيب؟
نقول: إننا لم نلجمًا إلى ما هو غيب كالملائكة والجنة والنار وحياة البرزخ إلى غير ذلك مما يغيب عن عقولنا ولكننا نأخذ بالدليل المادي ما يؤكد لنا أن الغيب قائم موجود، وأننا أن لم ندركه بعقولنا وأبصارنا، فليس معنى ذلك أنه غير موجود يؤدي مهمته في الحياة، ذلك أن وجود الشيء مختلف تماماً عن ادراك هذا الوجود، فقد يوجد الشيء وأنت لا تدركه، ومع ذلك فهو يؤدي مهمته في الحياة، ثم تأتي نفحة من رحمة الله تجعلنا ندرك بعقولنا أن ما حسبنا أنه ليس موجوداً إنما هو موجود وقائم يؤدي مهمته.
و قبل أن نبدأ الحديث لا بد أن نعرف أن هناك نوعان من الغيب: غيباً نسبياً وغيباً مطلقاً، الغيب النسبي لا يعتبر غيباً في علم الله وحده، بل يمكن أن يعرفه البشر، والغيب المطلق لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

ما هو الغيب النسبي؟ هو ما لا تعلمه أنت ولكن يعلمه غيرك، هب أن رئيس دولة ما اختار أحد الناس ليتولى منصب الوزارة، ولكن هذا الاختيار لم يبلغ صاحبه، إذن فهو غيب عن صاحبه، ولكنه معلوم لرئيس الدولة وكتبه إلى آخره، ولنفترض أن لصا سرق من بيتك شيئاً، أنت حين اكتشفت السرقة لا تعرف من الذي سرق؟ ولا أين المسروقات؟ ولكن الذي سرق يعرف نفسه ويعرف أين أخفى المسروقات، الخ..
اذن فهذا غيب نسبي، أي بالنسبة لك ولكنه معلوم بالنسبة لغيرك، هذا الغيب قد يعرفه بعض الناس، ولكن الغيب المطلق لا يعرفه أحد.

الله سبحانه وتعالى كشف لنا أنه يعلم الغيب النسبي والغيب المطلق، وأعطانا الدليل على ذلك حتى نعرف أن ما سيقع في هذا الكون موجود عند الله، ومعلوم ومعد، بحيث يخرج إلى الدنيا بكلمة كن، ولذلك فاننا لا بد أن نلتفت إلى آيتين كريمتين في القرآن الكريم، الآية الأولى قول الله تعالى:

{انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون} يس 82.

أي أن الله سبحانه وتعالى حين يريد أن يظهر لنا شيئاً يمارس مهمته في الحياة فانما يقول له "كن"، فيخرج بكلمة كن من علم الله سبحانه وتعالى إلى كون الله فنعرفه، في هذه الآية لا بد أن نلتفت إلى قول الله تعالى: {يقول له}، وما دام الحق سبحانه وتعالى يقول: {يقول له}، فمعنى ذلك أن هذا الشيء موجود، والا لما قال الله: {يقول له} لأن الخطاب هنا لشيء موجود فعلاً.

اذن فكل أحداث الكون وكل أحداث الدنيا والآخرة موجودة في علم الله سبحانه وتعالى، فإذا قال لها: {كن} خرجت الى علم الناس، ولذلك فان يوم البعث مثلاً موجود بكل تفاصيله وأحداثه في علم الله، والجنة موجودة، والنار أيضاً موجودة، لذلك اذا قيل في الحديث الشريف: "هذا رمضان قد جاء تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب النار، وتغلق فيه الشياطين" البخاري ومسلم. قد يتساءل البعض كيف يحدث هذا والجنة لم تخلق بعد، والنار لم تخلق كذلك، لأن وقتها لم يأت؟!. نقول: لا انهم مخلوقات في علم الله بكل ما فيهما، فإذا جاء وقتهمما أظهرهما الله، وفي هذا يلفتنا الحق سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:

{يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربها لا يجيئها لوقتها إلا هو} الأعراف 187.

أي أن الساعة بكل أحداثها موجودة عند الحق سبحانه وتعالى، ولكنه لا يظهرها إلا عندما يشاء، اذن فكل شيء موجود في علم الله وهو يظهره متى شاء وكيف شاء.

الآية الثانية قول الله تعالى:

{أتى أمر الله فلا تستعجلوه} النحل 1.

كيف يقول الحق سبحانه وتعالى: {أتى} أي حدث باستخدام الزمن الماضي، ثم يقول: لا تستعجلوه باستخدام الزمن المقبل، أليس هذا تناقض؟

نقول: انه لا يوجد أي تناقض لأن هذا الأمر الذي تتحدث عنه الآية الكريمة أتى في علم الله أى تقرر، وما دام قد تقرر فإنه حادث بلا شك لأنه لا توجد قوة ولا قدرة تستطيع أن تمنع ما يريد الله، والله سبحانه وتعالى دائم الوجود لا تأخذه سنة ولا نوم حتى تظن أنه قد يغفل عن شيء دائم القوة والقدرة، وكل من في الكون يستمد قوته قدرته من الله سبحانه وتعالى.

وذلك ما دام الله هو القاهر فوق عباده جميعاً، فمتي قال: {أتى} يكون قد حدث فعلاً، أما قوله: {فلا تستعجلوه} أي لا تستعجلوا ظهوره وخروجه إلى دنياكم المادية، أو لا تستعجلوا ظهوره لكي يصبح مشهوداً لديكم، وهكذا نرى أنه لا يوجد أي تناقض أو تضارب في قوله تعالى: {أتى أمر الله فلا تستعجلوه}.

نأتي بعد ذلك إلى الدليل الغيبي على وجود الله، ونبداً بالحديث بالدليل من الإنسان أولاً، ومن الأحداث ثانياً، ومن قضايا الكون ثالثاً:

فتلك هي النقاط الثلاث التي سنتحدث عنها في هذا الفصل، وان كانت هناك نقاط كثيرة لا يتسع المجال لها، لأنها ستتناول الدليل الكوني، والدليل الاحصائي، والدليل العلمي وغيره من الأدلة، ونحن هنا نعطي أمثلة يستطيع الناس أن يقيسوا عليها بعد ذلك، لأنه كما قلنا كل شيء في هذا الكون يشهد أنه لا اله إلا الله، ويشهد بالدليل المادي.

إذا أردنا أن نبدأ بالنفس البشرية، فإن الله سبحانه وتعالى أعطانا الدليل على أنه يعلم غيب النفس البشرية وما تخفيه، وإذا أردنا أن نبدأ بالنفس البشرية فاننا نبدأ بأن الله يسيطر على غيب هذه النفس سيطرة كاملة، ولذلك قال الله تعالى في القرآن الكريم:

{ وأنهينا إلى أم موسى أن أرضعيه فان خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني انا رادوه اليك وجعلوه من المرسلين} القصص 7.

اذن خواطر النفس البشرية هي في يد الله سبحانه وتعالى، والعقل البشري هو في يد الله سبحانه وتعالى يعطيه من الخواطر ما يشاء، ويمنع عنه ما يشاء ولكن الانسان خلق حرا في الاختيار، نقول: نعم حر فيما أراد الله له أن يكون حرا فيه وهو المنهج، ولكنه ليس حرا حرية مطلقة رغم أن الكثرين يذكرون هذه الحقيقة، فالانسان حر، نعم فيما قال الله له افعل ولا تفعل، هذا نطاق الحرية الأولى في تطبيق المنهج، وهو حر أن ينطق بالشهادة شهادة الایمان أو شهادة الكفر والعياذ بالله، وهو حر في أن يفعل ما وضعه الله في منهجه وفي تطبيق هذا المنهج، ومنهج الله يشمل كل نشاطات الحياة.

فالاسلام ليس مجرد شهادة لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله، واقام الصلاة وابتاء الزكاة، وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلا، تلك هي أركان الاسلام الأركان التي بني عليها هذا الدين.

الاسلام أشمل من ذلك بكثير، ولكن العقل البشري فيما لا يخص المنهج خاضع لقدرة الله.

أمثلة من القرآن

ولكن ما هو الدليل؟ نقول اقرأ قول الله سبحانه وتعالى:

{تبت يدا أبي لھب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سبیلی نارا ذات لھب وامرأتھ حمالة الحطب في جیدها حبل من مسد} المد 1_5.

هذه السورة الكريمة نزلت في أبي لھب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد كان كافرا رفض الایمان، محارباً لدین الله ورسوله، نزلت هذه السورة وأبو لھب كافر، وكثير من صناديد قريش وزعماء مكة كانوا كفارة، ثم هداهم الله فأسلموا، مثل أبي سفيان وخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم، وكان من الممكن أن يكون أبو لھب من هؤلاء وأن يهتدى للإسلام، ولو حدث ذلك لانعدمت قضية الایمان كلها، لأن القرآن قال إن أبي لھب سيموت كفرا، ولكن هناك شيئاً آخر لا بد أن ننتبه إليه وهو أن هذا الاخبار بالغيب، بأن أبي لھب سيموت كفرا جاء في أمر اختياري أي يخضع ظاهرياً لارادة أبي لھب.

ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن أبي لھب ذهب إلى مكان يتجمع فيه أهل مكة أو دعا زعماء مكة إلى اجتماع وقال لهم: لقد قال عني محمد في القرآن ادعى أنه ينزل من السماء انتي سأموت كافرا وسأدخل النار ولكنني أقول أممكم أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله، لتعلموا أنه هذا الكلام غير صادق وأن محمدا لا يوحى إليه بشيء.

ماذا كان يمكن أن يحدث لو نطق أبو لھب بالشهادتين رباء أو نفاق ليهدم قضية الدين، ولكن حتى هذا التصرف الذي كان يمكن أن يخدم قضية الكفر التي كان أبو لھب أكبر أقطابها، حتى هذا الكلام لم يخطر على عقل أبي لھب ولم يقله، أليس هذا دليلاً على أن ما يريد الله لا بد أن يحدث أبوجد تحد أكبر من أن يعطي الله أكبر أعداء الاسلام القضية التي يهدم بها هذا الدين، ثم لا يستطيع أن يستخدمها؟! أليس هذا دليلاً على أن ما يقضى الله به غيباً لا بد أن ينفذ مهما بدا غير ذلك، وهل يوجد دليل أكبر من ذلك على أن الغيب عند الله لا بد أن يقع؟

ثم نأتي بعد ذلك إلى دليل آخر، عندما حولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، نزل القرآن يقول:

{سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبليهم التي كانوا عليها} البقرة 142.

واستخدام حرف السين هنا دليل على أن الأمر لم يحدث بعد، ولو أنه حدث لقال سبحانه وتعالى: قال السفهاء، ولكن قوله تعالى: يقول دليل على أن ذلك سيحدث مستقبلاً، والإية نزلت في غير المؤمنين وتثبت عليهم قبل ان يقولوا، ولو أنهم فكروا قليلاً سكتوا ولم يقولوا شيئاً وحينئذ كان الناس سيسألون عن قول الله!

ويقولون لم يأت هؤلاء الذين وصفهم الله بالسفهاء الذين يقولون ما ولاهم عن قبليهم، ولكنهم رغم أنهم يريدون هدم الدين، ورغم أن الدليل المادي لهم قضية اليمان وضع في أيديهم إلا أنهم لم يخطر على بالهم أن يتمتعوا عن القول، بل جاءوا وقالوا، نعلم أن أمر الله وغيره لا بد أن ينفذ مما كانت هناك اراده بشرية.

الحق سبحانه وتعالى أعطانا الدليل المادي على صدق قوله سبحانه وتعالى:

{واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه} البقرة 235.

فالذين لا يؤمنون لا يصدقون هذا الكلام، ويقولون أين الدليل العقلي على ذلك؟
نقول: إن الدليل العقلي موجود، فالله سبحانه وتعالى أنزل في القرآن الكريم أنه يعلم ما في النفس وما يدور فيها، اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى:

{إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك لرسول الله والله يعلم أنك لرسوله الله يشهد أن المنافقين لكاذبون} المنافقون 1.

هذه الآية الكريمة قد نزلت عندما جاء عدد من المنافقين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلموا إسلامهم، ماذا قال المنافقون؟ قالوا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهذه شهادة حق، لأن الله سبحانه وتعالى يقول والله يعلم أنك لرسوله!
اذن شهادة المنافقين وافقت علم الله سبحانه وتعالى، ولكن الله سبحانه يقول:
كيف يكون المنافقون كاذبين وهم قد شهدوا بما قاله الله سبحانه وتعالى؟

نقول: إن الله أراد أن يعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن ما تقوله السنة هؤلاء المنافقين لا يوافق ما في قلوبهم، فهم شهدوا الرسول الله صلى الله عليه وسلم بالرسالة، ولكن بالسنتم فقط، أما قلوبهم فهي منكرة لهذه الرسالة مكذبة بها، وهكذا أعلن ما في صدور المنافقين وما يخونه عن الناس، ولم يجرؤوا أن يكذبوا ما أعلنه الله، والقرآن الكريم فيه آيات كثيرة تعطينا الدليل المادي على أن الله يعلم ما يخفيه الإنسان في صدره ولو لم ينطق به، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: {فانه يعلم السر وأخفى} طه 7.

والسر هو ما يسر به الإنسان إلى غيره، والسر دائمًا يكون بين اثنين، وما هو أخفى من السر، أي ما لا ينطق به الإنسان لأحد بل يبقى في صدره لا يعلمه أحد غيره، والله سبحانه وتعالى يأتي ليفضح الكافرين والمنافقين يقول:

{ويقولون في أنفسهم لو لا يعذبنا الله} المجادلة 8.

اذن هم لم يقولوا هذا الكلام لأحد، ولكن قالوه في أنفسهم فقط ولم تتطق به السنتم، ولا تحركت به شفاههم.

ولكن الله فضحهم وأنبا بما في صدورهم ولم يستطيعوا أن يكذبوا، ولو أن هذا كان صحيحاً لقالوا لم نقل شيئاً في أنفسنا، ولكنهم بهتوا بعلم الله سبحانه وتعالى فلم يستطيعوا الرد عليه ولو بالكذب.

و هكذا يظهر الدليل المادي أن الله سبحانه و تعالى يعلم ما في الصدور وما تخفي الأنفس ولا تعلنه، وإن الله علیم بما يحرص الإنسان على إخفائه عن الدنيا كلها، فعلم الله يمتد إلى غيب النفس البشرية، وما تحاول أن تكتمه أو تعتقد أن أحدا لا يعلمه.

دليل آخر

ثم يأتي الحق سبحانه و تعالى بدليل مادي آخر، على أنه هو عالم بالغيب، وأن ما يقوله حادث ونافذ، وأن الدنيا كلها لا تستطيع أن تغير قدرًا من أقدار الله، ويعطينا الدليل المادي على ذلك فيقول تبارك و تعالى:

{الله غالب الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غالبهم سيفلبون في بضع سنين، الله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون} الروم ٤-١.

وهذه حقيقة تاريخية لا يمكن أن ينكرها حتى الملحدون، ولقد نزلت هذه الآية عندما قامت الحرب بين الروم والفرس، وكانت الدولتان تمثلان أكبر قوة في العالم في ذلك الوقت، مثل الاتحاد السوفياتي سابقاً وأمريكا الآن، وقامت الحرب بينهما وهزمت الروم في هذه الحرب، عندئذ فرح الكفار لأن الفرس كانوا دولة كافرة تعبد النار، والروم كانت دولة مسيحية، أي أهل كتاب، وأراد الله سبحانه و تعالى أن يطمئن المؤمنين، ويذهب عنهم الحزن، فنزلت الآيات الكريمة تبشر بأن الروم سيفنتصرون في بضع سنين، وفي وقتها راهن المؤمنون الكفار على أن انتصار الروم سيحدث، وكان من المراهنين سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه، الذي راهن بأربعة من الأبل على أن انتصار الروم سيحدث بعد سبع سنين، ولما مضت هذه المدة ولم يحدث شيء، فرح المشركون بذلك، وشق على المسلمين، فذكر ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم فقال: ما بضع سنين عندكم؟ قالوا: دون العشر، فقال لبي بكر: اذهب فزайдهم وازدد سنين في الأجل، فما مضت السنين حتى انتصر الروم على الفرس، ففرح المسلمون بذلك، ثم نهى الرسول أبو بكر ونهى الصحابة عن المراهنة، وقال: إن الإسلام لا يقرها ولا يسمح بها.

من الذي يستطيع أن يتتبأ بنتيجة معركة حربية ستحدث بعد تسع سنوات؟ وماذا كان يمكن أن يحدث لو أن الروم والفرس عقداً صلحاً خلال هذه السنوات التسع، أو أن الفرس استعدوا قوياً لهذه الحرب وهزموا الروم مرة أخرى، ومن الذي يستطيع أن يضمن نتيجة معركة حربية ستحدث بعد هذه الفترة الطويلة، بل إن أحداً لا يستطيع أن يضمن نتيجة معركة حربية ستحدث بعد لحظات، بل إن كل قائد لأي معركة حربية لا يكون واثقاً من النصر قبل أن تبدأ لمعركة، أ، حتى عندما تبدأ، فلو علم أي قائد لمعركة حربية أنه سيهزم لما دخلها.

يأتي الله سبحانه و تعالى ليعطينا بالدليل المادي على أنه يعلم غيب السموات والأرض علم اليقين، فينبئنا بنتيجة معركة لا بين قوتين محدودتين، ولكن بين دولتين عظيمتين، وينبئنا عن هذه المعركة قبل أن تبدأ بتسع سنوات، ويخبرنا من الذي سيفنتصراً ومن الذي سيهزم، وتتأتي الأحداث وتقع الحرب، ويفنتصراً الروم ويفهزهم الفرس كما أخبرنا الله سبحانه و تعالى، وماذا كان يمكن أن يحدث لو أن الفرس انتصروا على الروم؟! القرآن كلام الله المتعدد بتلاوته إلى يوم القيمة،

وكيف كان يمكن أن يقف المسلمون في المساجد ويقرّون سورة الروم في الصلاة، مع أن نتائجة الحرب قد اختلفت عما في السورة.

وهكذا نرى مدى الاعجاز في أن الله سبحانه وتعالى، قد بين لنا بالدليل المادي على أنه يعلم الغيب، وأن علمه للغيب علم يقين لا بد أن يحدث وأن يتم، وأنه مسيطر على أمور الدنيا كلها، حتى في تلك الأشياء التي لا يمكن أن يتتبّأ بنتيجتها أحد قبل حدوثها بسنتع سنوات، بل لا يمكن أن يتتبّأ بنتيجتها أحد حتى ساعة حدوثها، أليس هذا دليلاً مادياً على أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يسير الأمر في كونه، وهو الذي إذا قال "كن" يكون، أليس هذا دليلاً على أن الله سبحانه وتعالى القائل:

{ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فـيكون } يس 82.
قول من الله الخلق ومسطير قادر على كل أحداث كونه، فإذا عرفنا ذلك بالدليل المادي، ألا نفهم معنى الآية الكريمة:
{ أتى أمر الله فلا تستعجلوه }.
ونصدق يقيناً بأن الله سبحانه وتعالى وحده هو رب وله هذا الكون.

الوجود وادراك الوجود

على اننا لا بد أن ننتقل بعد ذلك إلى نقطة هامة جداً، وهي أن عدم ادراكنا لوجود الشيء، لا يعني أن هذا الشيء غير موجود، فإذا حدثنا الله سبحانه وتعالى عن الملائكة وعن الجنة والنار وعن الشياطين، فلا بد أن نصدق، ليس بالدليل الایماني فقط، لأن القائل هو الله، ولكن سلطانه وتعالى في تحدٍ أعطى الدليل المادي لغير المؤمن به على أن الغيب موجود وإن لم ندرك وجوده، وأعطاه لنا من أحداث هذا الكون وما يقع فيه من ماديات.

فإذا أخذنا مثلاً الجراثيم تلك المخلوقات الدقيقة التي تهاجم جسد الإنسان وتصيبه بالمرض، هذه الجراثيم عاشت مع الإنسان عمره كله، ولكننا في أول الحياة البشرية وحتى فترة قصيرة لم نكن نعرف عنها شيئاً.

ثم تقدم العلم وتوصل العلماء إلى الميكروسكوبات الإلكترونية التي تكبر حجم الشيء ملابيin النساء، فماذا رأينا؟ رأينا عجباً، ميكروبات لها شكل ولها حركة، ولها حياة ولها تناقل وتناثر، ولها طريقة لخترق جسم الإنسان وتصل إلى الدم، ولها تعاملات مع كرات الدم. عالم كبير لم نكن نعرف عنه شيئاً بل كان غيباً منذ مائة سنة، ومع ذلك، ومع كونه كان غيباً عنا فهل لم يكن موجوداً؟ لا، بل كان موجوداً يؤدي مهمته في الحياة.

وكان العلماء في الماضي يعتقدون أن المرض معناه أن الأرواح البشرية قد تلبست جسد الإنسان، وكانتا يضربون المرضى أو يكون أجزاء من أجسادهم حتى تخرج هذه الأرواح الشريرة، ثم تقدم العلم واستطعنا أن نرى روبي العين هذه الجراثيم، وهي تتحرك وتتناقل، وتخترق وتحارب، بل استطعنا في تجاربنا العلمية أن ندخل هذه الجراثيم إلى أجساد الحيوانات، لندرس دورة حياتها وكيفية القضاء عليها.

وهكذا أعطانا الله الدليل المادي على أن ما هو غيب عنا موجود ويؤدي مهمته في الحياة، وأن عدم ادراكنا لوجوده لا يعني هذا الوجود.
وإذا نظرنا إلى قطرة الماء الذي نشربه تحت الميكروскоп لوجدنا فيها أشياء عجيبة، أشياء فيها حياة ولها حركة، ولها كيان ولها دور في الحياة، ولكننا لم نكن نعرف منذ فترة قصيرة أن هذه الأشياء موجودة فهل كان هذا شهادة بعدم وجودها، أم أنها كانت في الحقيقة موجودة، ولكننا لا ندرك هذا الموجود؟!

فإذا انتقلنا إلى الكون كله، وجدناه يشهد أن الوجود شيء وادراك الوجود شيء آخر تماماً، وأن ما لا ندرك وجوده يؤدي مهمته في الكون، فلننظر مثلاً إلى الأقمار الصناعية والراسل التلفزيوني، هل كان أحد يعرف أن ما يقع في مكان ما في العالم يستطيع كل العالم أن يشهده في لحظة واحدة وفي نفس لحظة حدوثه؟ طبعاً لم يكن أحد يعرف ذلك.
ثم كشف الله سبحانه وتعالى لنا من علمه ما مكننا من أن نعرف أنه موجود في الكون من الخصائص ما يمكن أن يجعل الإنسان في كل الدنيا ليرى ويشهد ما يقع في مكان ما وقت حدوثه، ويرى الإنسان وهو ينزل على القمر وهو يمشي فوقه.

كيف توصل الإنسان إلى هذا التقدم العلمي؟ هل اخترع غلافاً جوياً يستطيع أن ينقل الصور؟ هل جاء بمواد من خارج الأرض، أم بمواد من خارج خلق الله تعالى ليصنع منها الأقمار الصناعية التي حققت هذه الاتصالات؟ طبعاً: لا، ولا يستطيع أن يقول: حتى أكبر الماديين، أن هذه الخصائص التي استخدمت قد أوجدها الإنسان وخلقها، ولكن الغلاف الجوي والمواد في الأرض موجودة منذ خلق الله الأرض ومن عليها ولكن خصائصها كانت غيباً عنها.
وعندما جاءت مشيئة الله لتكتشفها لنا وجدنا شيئاً عجباً فاستخدمناه فأعطانا ما نحن فيه من تقدم علمي، أيستطيع أحد أن ينكر خصائص الكون وأنها كانت موجودة، قبل أن يعلمنا الله كيف نستخدمها وفيما نستخدمها، لا يستطيع أي مكابر أن يقول إنها لم تكون موجودة، بل كانت موجودة ولكنها كانت غيب عنا، فلما أرادنا الله أن نعلمها كشفها لنا لنعلم أن ما هو غيب موجود، رغم أننا لم نكن ندرك وجوده.

فإذا نظرنا إلى ما في السموات، نجد أننا كلما استطعنا أن نضع ميكروسكوباً أضخم وأقوى، استطعنا أن نكشف أجراماً سماوية جديدة ونراها لأول مرة، هل كانت هذه الأجرام التي لم نكن نعرف عنها شيئاً غير موجودة؟ أو لم تكن تؤدي مهمتها في الكون؟
كانت موجودة وكانت تؤدي مهمتها في الكون، ولكن الله سبحانه وتعالى أخفى وجودها عنا إلى أجل حده، فلما كشف لنا هذا الوجود فعرفناه حتى نعلم أن ما هو غيب عنا موجود يؤدي مهمته في الكون ولو لم ندرك وجوده.

بل إن الله سبحانه وتعالى أراد أن تكون الحياة الإنسانية كلها شاهدة على أن الغيب موجود، أرادنا أن نكون شهادء على أنفسنا حتى لا تأتي يوم القيمة، ونقول: يا رب لم تعطنا الدليل العقلي على أن ما هو غيب عنا موجود، فضلت عقولنا، يا رب لو أعطيتنا الدليل لكنا أمنا، ولذلك جاءت حياة البشر كلها شاهدة على ذلك، فالله سبحانه وتعالى أعطى الإنسان وحدهة القدرة على أن يرث الحضارة ويضيف عليها، في حين سلب ذلك من كل مخلوقاته، ولذلك ترى أن حياة الحيوان مثلاً كما هي منذ بدء الخليقة لم تقدم، فلم تسمع عن أن مجموعة من القرود مثلاً قد عقدت اجتماعاً لترتقي بوسائل حياتها، وتبني لنفسها أماكن مكيفة الهواء تقىها حرارة الجو في المناطق الاستوائية.

ان لم نسمع أن مجموعة من الحيوانات القطبية قد جلست معاً لتختبر وسائل تدفئة تقىها برد الشتاء القارس الذي بيدها ويفنيها و يجعلها تتضور جرعاً، ولم نسمع عن مجموعة من الحيوانات جلست تتداول للوصول إلى دواء لمرض يفتاك بها، أو للوصول إلى مبيد حشرات لحشرة تنقل لها الأمراض، بل الرقي في حياة الحيوان أو النبات الذي يضعه هو العقل البشري.
ولكن الإنسان مختلف عن ذلك تماماً، فالعقل البشري قد أعطاه الله سبحانه وتعالى ميزة وراثة الحضارة البشرية، فكل جيل يبدأ حياته من حيث انتهى الجيل الذي قبله، ثم يضيف إليها، وقدرة العقل البشري على استيعاب القدم العلمي لا حدود لها، ولذلك فإن كل جيل من البشر يعرف شيئاً كان غبياً عن الجيل الذي قبله، وكل جيل من البشر يتبع الله سبحانه وتعالى له من أسرار ما وضعه في كونه ومن قوانين هذا الكون ما لم يتح للجيل الذي قبله.
وإذا كان هذا الجيل هو جيل الكمبيوتر مثلاً، فإن الجيل القادم سيكشف الله له من أسرار هذا الكون ما يعطيه علماً يجعل أجهزة الكمبيوتر الحالية شيئاً من مخلفات الماضي، وهكذا ترقي الحضارات.

وكلما تقدم الزمن كانت سرعة ارتفاع الحضارات البشرية أكبر، لأن اضافات مستمرة تحدث لهذه الحضارات، وكل اضافة تفتح الطريق أمام اضافة أكبر.

لماذا أعطى الله سبحانه وتعالى البشرية وحدها، هذه القدرة على الرقي الإنساني؟ لنعرف جميعاً ونحن الذين أعطينا الاختيار في أن نؤمن أو لا نؤمن، لنعرف جميعاً أن الجمود الفعلي في أن ما هو غيب عنا غير موجود هو خرافية، ونحس في حياتنا كل يوم أن هناك غبياً يصبح واقعاً معلوماً، ونرى المعجزة تحدث أمام أعيننا مرات ومرات، ونشهدها بروية اليقين، علينا نتدبر ونفكّر قليلاً، فنعلم أن الله سبحانه وتعالى بحكمته ورحمته، قد أعطانا الدليل المادي على أن ما هو غيب عنا موجود.

فإذا أخبرنا بغير لا ننكره، ولكننا نؤمن بوجوده، وبأن قدراتنا الحالية لا تصل إليه ولكنها قد تصل إليه في المستقبل.

وفي ذلك يلفتنا القرآن الكريم في قوله تعالى:

{سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق} فصلت 53.

ونحن نعرف معنى قول الله تعالى:

{حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتواها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس، كذلك نفصل الآيات لقوم يتقركون} يونس 24.

وهكذا ونحن نراقب مسيرة الحضارة البشرية نعلم أن الله تعالى قد أخبرنا أن هذه الحضارة سترتقي وترتقي بما يكشفه الله لنا من قوانين هذا الكون حتى نظن أنها قادرون على أن نفعل ما نشاء في الأرض، وهذا الظن ليس حقيقة ولكنه مجرد ظن، لأن الله الذي كشف لنا هذه القوانين لم يخضعها لرادتنا، ولكنه سبحانه سخرها لنا فقط لنجعل بها ما نشاء.

فإذا اغتر الإنسان واعتقد أن هذه القوانين من صنعه، أو أنه أخضعها بذاتية علمه، وبدون أمر الله تبارك وتعالى، يأمر الله سبحانه وتعالى هذه القوانين أن تخرج عن أمر الإنسان فتدمره وتقوم الساعة.

الله أخبرنا بكنوز الأرض

وإذا كنا نريد أن نتحدث عن دليل غيبي آخر يزيد من الأدلة العقلية التي ثبتت وجود الله تعالى، فلا بد أن نقرأ قوله عز وجل:

{لَمْ يَرَوْهُ إِلَّا هُنَّ مُؤْمِنُونَ} طه 6 .
فلو قرأنا هذه الآية التي نزلت منذ أكثر من أربعة عشر قرنا، لعلمنا أن أحداً لم يكن يدرى شيئاً ولفتره طويلة عن معنى قوله تعالى:{ وما تحت الثرى}.
وكان كل ما تحت الثرى أو تحت التراب، أو في باطن الأرض غيباً عنا ثم أراد الله سبحانه وتعالى أن يكشف لنا ما هو غيب عنا موجود وإن لم نكن ندرى بوجوده، فكشف لنا ما تحت الثرى، فوجدنا أن ما تحت الأرض يحتوي على كنوز رهيبة، وجدنا البترول والذهب والمعادن والحديد وأشياء نفيسة، ووجدنا المياه الجوفية، ووجدنا عالماً هائلاً يحتوي على مواد لم نكن نعلم بوجودها ولا نعرف شيئاً عنها.

وهكذا أعطانا الحق سبحانه وتعالى دليلاً آخر على أن ما هو غيب عنا موجود، وإن كان لا ندرك وجوده، فلا أحد في هذه الدنيا يستطيع أن يدعي أنه هو الذي أوجد ما في باطن الأرض من كنوز، ولا أحد مهما بلغ علمه ولا علماء الأرض مجتمعين يستطيعون أن يدعوا أنهم هم الذين أوجدوا هذه البحيرات الهائلة من البترول، أو هذه المعادن النفيسة كالذهب والفضة، أو الماس أو نحاس أو الحديد أو الألミニوم، غيرها.

بل إن هناك كنوزاً تحت الثرى مخفية عن أعيننا تفوق الكنوز التي ظاهرها لأعيننا فوق سطح الأرض، وهذه الكنوز لم تأت من عدم ولم توجد في السنوات الأخيرة، بل كانت موجودة في باطن الأرض منذ أن خلقها الله سبحانه وتعالى، ولكنها كانت غيبة عنا فلم نكن نعرف بوجودها. حينئذ تكون قد وصلنا إلى أن الله سبحانه وتعالى، قد أعطانا من الأدلة المادية والعقلية ما يؤكّد لنا أن ما هو غيب عنا موجود وإن لم نكن ندرك وجوده.

فإذا حدثنا الله سبحانه وتعالى بما هو غيب كالأخرة والحساب والجنة والنار، لا نقول إن الله يخاطبنا بما لا نستطيع أن تدركه عقولنا، وأننا لا نستطيع تصديق ذلك، بل نعود إلى واقع الكون، ونتأمل ما فيه من آيات، وما وضعه الله لنا فيه من دلائل، ولو أننا تدبّرنا لقاناً يا رب لقد أعطيتنا مع الدليل الإيماني الدليل الفعلي الذي يقرب الصورة إلى أذهاننا حتى ندركها، وليس لنا عذر يا رب يوم الحساب في أن نقول إن عقولنا لم تدرك، لأنك وضعت في كونك الأدلة المادية التي

تثبت أن الغيب واقع موجود، وكان يجب أن تكون هذه الأدلة هي طريقنا إلى الإيمان، لا طريقنا إلى الكفر والالحاد.

على أننا سنتنقل بعد ذلك إلى الآيات الأرضية، التي أراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا بها، إلى أنه لا إله إلا هو الخالق والموجد والقادر.

الفصل الرابع الآيات الأرضية ودلالتها

وفي الأرض آيات

الله سبحانه وتعالى له آيات تملأ الأرض والسماء ولكننا غافلون عنها، ومن الاعجاز الالهي أن آيات الله لا تنتهي، فإذا مشيت في الطريق فهناك آيات، وإذا صعدت إلى الجبل فهناك آيات، وإذا نزلت قاع البحر وجدت آيات، وإذا صعدت إلى السماء كانت هناك أكثر من آية.

وإذا نزلت إلى باطن الأرض فهناك آيات وأيات، هناك آية في تلك الشجيرة الصغيرة التي تراها تنبت في سطح الجبل، ساقها هشة لينة ربما لا تحتمل قبضة يدك ومع هذا فقد فلت الصخر ونبت فيه، واستطاعت الشجيرة الرقيقة أن تمتد وتضرب في باطن الجبل وتحصل على الغذاء. وتعجب أنت كيف يمكن أن يحدث ذلك، ومع أنك لو أردت أن تضع ثقبا في سطح الجبل لاحتاجت إلى آلات حادة وقوى كثيرة، وتعرف أن الله سبحانه وتعالى الذي خلقها قد ألان لها الصخر فنبت فيه، وألان جذورها صخور الجبل فامتدت حتى وصلت إلى المصدر الذي يعطيها الغذاء.

هذه الآيات لا تحتاج إلى بحث ولا إلى ميكروسكوب، ولكنها تحتاج لمجرد التأمل، وفي الأرض آيات كثيرة لا تحتاج منها أكثر من أن نتأملها لنعرف قدرة الله وعظمته ونؤمن به، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

{ انما يخشى الله من عباده العلماء } فاطر 28.

لماذا حض الله العلماء بالخشية؟ لأنهم وهم يبحثون في مخلوقات الله في الأرض، يرون أسراراً دقيقة خلق وابداع تكوين كان يجب أن يجعلهم أول الساجدين لله، أول العبادين لله. ولكن هؤلاء العلماء الماديّين بدلاً من أن يفعلوا ذلك، أخذوا يحاولون النيل من الدين ومن الإيمان، والإنسان يعتقد أنه وصل إلى أسرار الكون، ولكنه في الحقيقة لم يصل حتى إلى أسرار نفسه، بل انه ينتقل من قانون إلى قانون ولا يعرف كيف ينتقل، ولا ما هو سر هذا الانتقال.

فالإنسان وهو مستيقظ له قوانين ربما عرفنا بعضها، ولكنه اذا نام انتقل إلى قانون مختلف تماماً مجهول له، فهو يخرج من الزمن، فالإنسان وهو نائم لا يحس بالزمن، فإذا استيقظ فهو لا يعرف كم ساعة نامها ولا بد أن ينظر إلى ساعته ليعرف كم ساعة قضتها وهو غائب عنها. اذن قانون الزمن ايسري على النائم فلا يحس بالوقت، لماذا؟ لأن الزمن هو قياس للأحداث، فنحن نقيس الأحداث بالزمن، والنائم هو خارج عن هذه الأحداث.

والإنسان اذا نام رأى وعيشه مغمضتان، ومشى وجرى وقدماه لا تتحركان من فوق السرير، وتحدث لسانه ولم يتحرك، ورأى وتكلم مع أناس انتقلوا إلى العالم الآخر منذ سنوات، ومع ذلك فهو يحدثهم ويسمعهم وهم يكلمونه ويسمعونه ويفهم ما يقولون، والعلم خارج هذه المنطقة تماماً فلا يستطيع عالم أن يخبرنا كيف يرى الإنسان وهو نائم، أو يتحرك أو يلقي مع أناس انتقلوا للعالم الآخر، وكل ما جاء عن هذه محاولات أطلق عليها اسم العلم، إنما هي تخمينات بلا دليل

و معظمها من الخيال أكثر من الواقع، ومع أن كل هذا يحدث لكل منا ويحدث كل يوم، تحد هناك من يعلن بوقاحة، ويقول انتهى عصر الدين وجاء عصر العلم و هؤلاء إنما يقولون بهتانا، فالله هو الكافش لعباده عن العلم، هو القائل في كتابه الكريم:
{اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم} العلقة 3_5.

ولكن الناس لا يؤمنون، رغم أن هناك من الأدلة المادية في الكون ما لا يعد ولا يحصى، تهدي الناس إلى طريق الإيمان وإلى وجود الله، و هؤلاء الذين لا يؤمنون بعضهم منكر للدين لأنه يريد أن يكون هو مصدر التشريع، لأن منهج الله سبحانه وتعالى قائم على العدل بين الناس، وأعطى كل ذي حق حقه، وهم يريدون أن يتميزوا وأن يأخذوا حقوق غيرهم ولا سبيل إلى ذلك إلا أن يضعوا منها من صنعتهم، يعطيهم كل شيء ويسلب غيرهم كل شيء، والطريقة الوحيدة لذلك هي أن ينكروا منهج السماء.

والقسم الثاني فضل أن يعيش مع النعمة بدلاً من أن يعيش مع المنع، و هؤلاء الناس الذين متعهم الله سبحانه وتعالى بنعمه في الدنيا لم يفكروا كيف جاءت هذه النعم ولكنهم أرادوا أن يأخذوا من النعم كل ما يستطيعون، وأعماهم الطمع الإنساني، فلم يفكروا إلا في الحصول على نعمة المال أو نعمة السلطة أو غيرها من نعم الكون، و هؤلاء شغلو أنفسهم بالمادة بدلاً من أن يفكروا فيمن خلق المادة، وأخذوا النعم في أنها حق لهم دون أن يبحثوا عن أوجدها، فرغم أن قوانينهم المادية التي يؤمنون بها، تقول: أنه لا شيء يحدث في الدنيا بدون فاعل، فلم نجد مثلاً عمارة نشأت هكذا دون أن يكون لها مهندس وعامل وغير ذلك من أقاموها، ولم يجلسوا في بيوتهم مثلاً ليجدوا كمية من المال ظهرت أمامهم فجأة، وكل مصالحهم لا بد أن يتحركوا لقضائها.

ومع أن قانون المادة يقول أنه لا يوجد فعل دون فاعل، فإنهم لم يطبقوا هذا القانون على الكون كله، بل ادعوا أن الكون قد خلق بدون فاعل، بعضهم قال: حدث هذا بتفاعل المواد!! ولو أنصفوا لسؤالاً من الذي أوجد المادة أولاً ومن الذي حرکها ثانياً، ولكنهم تناسوا هذا السؤال. حتى إذا صدمتهم آية من آيات الله تكبروا عليها، ولعل هذا واضح في العالم الغربي الذي يحاول الفصل بين العلم والدين فصلاً تاماً، وربما كان السبب في ذلك هو المعركة الرهيبة التي قامت بين العلم والكنيسة واستمرت أكثر من قرنين، وقد كانت المنيسة تتذكر العلم تماماً استناداً إلى التوراة وهو الكتاب المقدس لليهود، والذي تؤمن به الكنيسة، وما جاء في التوراة يقول أنه شجرة النفاخ التي أكل منها آدم هي شجرة المعرفة، انه حينما أكل آدم النفاخة، كشفت له علوم كثيرة فغضب الله عليه وطرده من الجنة، وكانت هذه هي المعصية الأولى التي ما زالت البشرية تعاني منها حتى الآن، والتي نكفر عنها بحياتنا في الأرض المليئة بالشقاء ولو لم يأكل آدم نفاخة المعرفة لكان حتى الآن نعيش في الجنة.

هذه الخرافية المحرفة هي التي أدت إلى المعركة بين الكنيسة والعلم! تلك المعركة التي تعرض فيها العالم الإيطالي "جاليليو جاليلي" في القرن الخامس عشر إلى غضب الكنيسة عندما أثبتت بالأدلة المادية كروية الأرض وأصدرت الكنيسة حكماً بحرقه حياً لأنه كفر، وأضطر العالم الإيطالي أن ينكر ما اكتشفه.

ولكن موقف الإسلام مختلف، ذلك أن النفاخة التي أكلها آدم هي منهج الشيطان الذي أظهر عوراته وكشفها، كما يظهر تزيين الشيطان للناس في الدنيا عوراتهم فيكشفها فيصيبهم الخزي والعار.

أما العلم فالاسلام ينظر اليه على أنه من الله أو لا، فالله يكشف آياته في الأرض للانسان، ولانسان يكتشف ولا يخلق أو يضع في الكون قوانين جديدة من صنعه، ولكن الله يكشف لمن يشاء قوانين كونه وكل قانون وكشف ميلاد، فإذا جاء ميلاد لقانون كوني، كشفه الله لمن يبحث عنه من البشر فيعرفونه ويستخدمونه.

والله سبحانه وتعالى الذي قال: {علم الانسان ما لم يعلم}.
يجب أن نعرف أن كل علم هو من الله، والله سبحانه وتعالى ميز الانسان على الملائكة بالعلم، فقال جل جلاله:

{وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أفل لكم اني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون} البقرة 32.

هذا هو موقف الاسلام من العلم وان كان للكنيسة موقف آخر في معركة استمرت قرنين كاملين بين الكنيسة والعلماء، وعندما انتصر العلماء عملوا على تضييق نفوذ الكنيسة بحيث أصبحت لا دخل لها بالعلم، وفصلوا الدين عن الدولة الى آخر ما يرويه التاريخ.
والعلماء في أبحاثهم يحاولون انكار دور الدين ايmana ذاتيتهم، فهم يريدون أن يقولوا نحن فعلنا ونحن اكتشفنا كما قال قارون:

{قال انما أوتته على علم عندي} القصص 78.

ولذلك ليس في بالهم الله وسيفاجاؤن بالله سبحانه وتعالى في الآخرة، مصداقا لقوله تعالى:
{والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمان ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه، والله سريع الحساب} النور 39.

ولا يحسب أحد أن هؤلاء الذين كفروا فعلوا ذلك لأن آيات الله لم تصل اليهم، بل الآيات أمامهم ولكنهم هم الذين يتکبرون على الایمان، ويقول الحق سبحانه وتعالى:

{وما تأبوا من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين} الأنعام 4.

ولذلك فان اعراضهم ليس على أن الدليل المادي على وجود الله غائب عنهم ولكن لأنهم يرفضون الایمان، اما ليتحققوا مصالح ذاتية، واما لأنهم لا يؤمنون بالآخرة، فيحاولون أن يأخذوا كل ما تعط لهم الدنيا على أن هذا هو كل شيء، وتكون النتيجة أنهم يستخدمون كل الوسائل حلا او حراما في الوصول الى أهدافهم، عملا بمبدأ أن الغاية تبرر الوسيلة.

ولو أنهم فكروا قليلا لوجدوا الآيات في القرآن الكريم معجزات، ولو أنهم كانوا علماء وباحثين فعلا، لقرأوا القرآن الذي سمعوا عنه، ودرسووا الاسلام دراسة غير مغرضة، ثم بعد ذلك من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وانهم مثلا لو التقتو الى الآية الكريمة:

{فحونا آية الليل وجعلنا آية النهار بمصرة} الاسراء 2.

لعرفوا الاعجاز في هذه الآية وحدها، ولكن الاعجاز فيها كافيا لأن يؤمنوا، الله سبحانه وتعالى يقول:
{وجعلنا آية النهار بمصرة}.

وهكذا وصف الله النهار بأنه هو المبصر، ولكن النهار هو الذي يبصر أم العين هي التي تبصر؟ الذي نفهمه من تلقائية الأ بصار أن العين هي تبصر، ولكن الحقيقة العلمية تختلف، فقد ثبت علمياً أن ضوء الشمس ينعكس على الأشياء ثم تدخل أشعة النور إلى العين فتبصر.

اذن فالعين لا تبصر بذاتها ولا بذاتيتها، ولكنها تبصر بالضوء الذي ينعكس على الأشياء الموجودة أمامهما ويدخل إلى العين، فإذا ذهب هذا الضوء وجد الظلام فان العين لا تبصر ولا ترى شيئاً في الظلام الدامس، الا أن تأتي بمصباح أو مصدر من نور يلقي الضوء على الأشياء فينعكس على العين فتبصر.

وهكذا نرى دقة التعبير في القرآن الكريم في قوله تعالى:

{فحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة}.

فالأ بصار نسبة الله سبحانه وتعالى لضوء النهار ولم ينسبة إلى العين ولقد نزلت هذه الآية والبشر كلهم لا يعلمون كيف يتم الإ بصار؟ ماذا كان يحدث لو تقدم العلم وكشف أن العين تبصر بذاتها وليس بانعكاس الضوء على الأشياء، أكنا في هذه الحالة نستطيع أن نقرأ في الصلاة:{فحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة}.

ألم يكن هذا كافياً لهم قضية الدين من أساسه.

ولو أن هذا القرآن ليس من عند الله، وأنه من عند محمد عليه الصلاة والسلام، فما الذي كان يجعله يغامر بذكر قضية علمية بهذه القضية قد يثبت عدم صحتها فيضيغ الدين كلها، ومن أين له هذه المعلومات حتى يعرف أن الإ بصار يحدث بضوء النهار؟ أليس هذا دليلاً مادياً كافياً للإ لمان بالله، وللإ لمان بأن القرآن منزلاً من عند الله الخالق لهذا الكون والعالم بأسراره؟!

معنى كروية الأرض

إن القرآن كلام الله المتعدد بتلاوته إلى يوم القيمة، ومعنى ذلك أنه لا يجب أن يحدث تصادم بينه وبين الحقائق العلمية في الكون، لأن القرآن الكريم لا يتغير ولا يتبدل، ولو حدث مثل هذا التصادم لضررت قضية الدين كلها، ولكن التصادم يحدث من شيئاً: عدم فهم حقيقة قرانية، أو عدم صحة حقيقة علمية، فإذا لم نفهم القرآن جيداً وفسرناه بغير ما فيه حدث التصادم، وإذا كانت الحقيقة العلمية كاذبة حدث التصادم، ولكن كيف لا نفهم الحقيقة القرانية؟ سنضرب مثلاً لذلك ليعلم الناس أن عدم فهم الحقيقة القرانية قد يؤدي إلى تصادم مع حقائق الكون، الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز:

{والأرض مددناها} الحجر 19.

والمد معناه البسط، ومعنى ذلك أن الأرض مبسوطة، ولو فهمنا الآية على هذا المعنى لأتهمنا كل من تحدث عن كروية الأرض بالكفر خصوصاً أننا الآن بواسطه سفن الفضاء والأقمار الصناعية قد استطعنا أن نرى الأرض، على هيئة كرة تدور حول نفسها، نقول: إن كل من فهم الآية الكريمة:{والأرض مددناها}.

بمعنى أن الأرض مبسطة لم يفهم الحقيقة القرآنية التي ذكرتها هذه الآية الكريمة، ولكن المعنى يجمع الاعجاز اللغوي والاعجاز العلمي معاً، ويعطي الحقيقة الظاهرة للعين والحقيقة العلمية المختفية عن العقول في وقت نزول القرآن.

عندما قال الحق سبحانه وتعالى: {والأرض مدبناها}.

أي بسنانها، أقال أي أرض؟ لا، لم يحدد أرضاً بعينها، بل قال الأرض على اطلاقها، ومعنى ذلك أنك اذا وصلت الى أي مكان يسمى أرضاً تراها أمامك ممدودة أي منبسطة، فاذا كنت في خط الاستواء فالارض أمامك منبسطة، وإن كنت في القطب الجنوبي أو في القطب الشمالي، أو في أمريكا أو أوروبا أو في أفريقيا وأسيا، أو في أي بقعة من الأرض، فانك راها أمامك منبسطة، ولا يمكن أن يحدث ذلك الا اذا كانت الأرض كروية، فلو كانت الأرض مربعة أو مثلثة أو مسدسة على شكل هندسي آخر، فانك تصل فيها الى حافة، لا ترى أمامك الأرض منبسطة، ولكنك ترى حافة الأرض ثم الفضاء.

ولكن الشكل الهندسي الوحيد الذي يمكن أن تكون فيه الأرض ممدودة في كل بقعة تصل اليها هي أن تكون الأرض كروية، حتى اذا بدأت من أي نقطة محددة على سطح الكرة الأرضية ثم ظلت تسير حتى عدت الى نقطة البداية، فانك طوال مشوارك حول الأرض ستراها أمامك دائماً منبسطة، وما دام الأمر كذلك فانك لا تثير في أي بقعة على الأرض الا وأنك تراها منبسطة أمامك.

وهكذا كانت الآية الكريمة: {والأرض مدبناها}.

لقد فهمها بعض الناس على أن الأرض مبسطة دليل على كروية الأرض، وهذا هو الاعجاز في القرآن الكريم، يأتي اللفظ الواحد ليناسب ظاهر الأشياء ويدل على حقيقتها الكونية. ولذلك فان الذين أساوا فهم هذه الآية الكريمة وأخذوها على أن معناها أن الأرض منبسطة، قالوا هناك تصادم بين العلم والدين، والذين فهموا معنى الآية الكريمة فيما صحيحاً قالوا ان القرآن الكريم هو أول كتاب في العالم ذكر أن الأرض كروية، وكانت هذه الحقيقة وحدها كافية بان يؤمنوا، ولكنهم لا يؤمنون.

الليل والنهر و جداً معاً

فالقرآن الكريم لم يأت بالدلائل التي تؤكد لنا أن الأرض كروية في آية واحدة، بل جاء في آيات متعددة، لماذا؟ لأن هذه القضية كونية كبيرة، ولأن الكتب القديمة التي أنزلها الله قبل القرآن الكريم قد حرفت بشرى، فأوجدت تصادماً بين العلم والدين، ولذلك يأتي القرآن الكريم ليعطينا الدليل تلو الدليل على كروية الأرض.

يقول الله سبحانه وتعالى:

{ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون } يس 40.

الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة يرد على اعتقاد غير صحيح كان موجوداً عند العرب وقت نزول القرآن، وهو أن الليل يأتي أولًا ثم بعد ذلك يأتي النهار، أي أن النهار لا يسبق الليل، ويجيء الحق ليصحح هذا الاعتقاد الخاطئ فيقول:

{ ولا الليل سابق النهار}.

أي أنكم تعتقدون أن النهار لا يسبق الليل، ولكن الله يقول لكم: إن الليل أيضا لا يسبق النهار ، انهم موجودان معا على سطح الكرة الأرضية، وحيث انه لم يحدث تغيير في خلق الكون أو في القوانين الكونية العليا بعد أن تمخلق، بل بقيت ثابتة تسير على نظام دقيق حتى قيام الساعة، فلو كانت الأرض على شكل هندسي آخر مربع أو مثلث أو غير ذلك، لكان في ساعة الخلق وجدها أولا، ولكن لا يمكن أن يوجد الليل والنهار معا في وقت واحد على سطح الكرة الأرضية، الا اذا كانت الأرض كروية، فيكون نصف الكرة مضيئا والنصف الآخر مظلا . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يؤكد هذا المعنى، فذكر آية أخرى تحدد معنى كروية الأرض ودوراتها فقال جل جلاله:

{ وهو الذي جعل الليلة خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا } الفرقان 62 .
ما معنى خلفة؟ معناها أن الليل والنهار يخلف كل منهما الآخر، فمثلا في الحراسات المستمرة، تأتي نوبة حراسة لتختلف نوبة سبقتها ثم تأتي نوبة الثالث لتختلف الثانية وهكذا .
وإذا فرضنا أن مصنعا يعمل أربعا وعشرين ساعة متواالية، فإنه يكون هناك أربع دوريات تخلف كل منهما الأخرى، ولكننا لا بد أن ننتبه إلى أنه في كل هذه النظم ، لا بد أن تكون هناك دورية هي التي بدأت ولم تختلف أحدا، فإذا قررنا وضع الحراسة على مكان فإن الدورية الأولى تبدأ الحراسة لا تختلف أحدا لأنها البداية، وإذا بدأنا العمل في المصنع فإن الدورية الأولى التي افتتحت العمل لم تختلف أحدا لأنه لم يكن هناك في المصنع عمل قبلها .
وهكذا في كل شيء في الدنيا، يخلف بعضه بعضا، تكون البداية دائما وليس هناك شيء قبلها تخلف، ولكن الحق سبحانه وتعالى قال:

{ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة}.

وما دام الله هو الذي جعل فلا بد أن يكون ذلك حدث ساعة الخلق، فأوجد الليل والنهار خلفة على الأرض، ولكننا كما أوضحنا، فإن ساعة البداية في كل شيء لا يكون فيها خلفة، أي لا يخلف شيء شيئا قبله، وهذه هي البدايات، ولكن الله يقول لنا: إنه في ساعة البداية كان الليل والنهار خلفة، إذن فلا بد أن يكون الليل والنهار قد وجدا معا ساعة الخلق على الأرض، بحيث أصبح كل منهما خلفة للآخر ، فلم يأت النهار أولا ثم خلفه الليل، لأنه في هذه الحالة لا يكون النهار خلف بل ببداية، ولم يأت الليل أولا ثم يخلفه النهار لأنه في هذه الحالة لن يكون الليل خلفة بل ببداية، ولا يمكن أن يكون الليل والنهار كل منهما خلفة للآخر الا اذا وجد معا .
ونحن نعلم أن الليل والنهار يتعاقبان علينا في أي بقعة من بقاع الأرض، فلا توجد بقعة هي نهار دائم بلا ليل، ولا توجد بقعة هي ليل دائم بلا نهار، بل كل بقعة الأرض فيها ليل وفيها نهار ، ولو أن الأرض ثابتة لا تدور حول نفسها، ووجد الليل والنهار معا ساعة الخلق فلن يكونوا خلفة ولن يخلف أحدهما الآخر، بل يظل الوضع ثابتا كما حدث ساعة الخلق، وبذلك لا يكون النهار خلفة للليل ولا الليل خلفة للنهار .

ولكن لكي يأتي الليل والنهار يخلف كل منهما الآخر فلا بد أن يكون هناك دوران الأرض لتحدث حركة تعاقب الليل والنهار ، فثبتت الأرض منذ بداية الخلق لا يجعل الليل والنهار يتعاقبان، ولكن حركة دوران الأرض حول نفسها هي التي ينتج عنها هذا التعاقب أو هذه الخلفة التي اخبرنا الله سبحانه وتعالى بها .

اذن فقول الحق سبحانه وتعالى:{ وجعلنا الليل والنهار خلفة}.
يحمل معنيين:

المعنى الأول: أنهم خلقا معا، فلم يسبق أحدهما الآخر، وهذا أخبار لنا من الله سبحانه وتعالى بأن الأرض كروية. والمعنى الثاني: أن الأرض تدور حول نفسها، وبذلك يتعاقب الليل والنهار.
وهكذا نرى الاعجاز القرآني، فالقائل هو الله، والخالق هو الله، والمتكلم هو الله، فجاء في جزء من آية قرآنية ليخبرنا أن الأرض كروية وأنها تدور حول نفسها، ولا ينسجم معنى هذه الآية الكريمة إلا بهاتين الحقيقتين معا، هل يوجد أكثر من ذلك دليل مادي على أن الله هو خالق هذا الكون.
ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى ليؤكد المعنى في هذه الحقيقة الكونية لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يري خلقه آياته فيقول:

{ خلق السموات والأرض بالحق، يكور الليل على النهار ويكون النهار على الليل، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى، لا وهو العزيز الغفار } الزمر 5.

وهكذا يصف لحق سبحانه وتعالى بان الليل والنهار خلقا على هيئة التكوير، وبما أن الليل والنهار وجدا على سطح الأرض معا يمكن أن يكونا على هيئة التكوير، الا اذا كانت الأرض نفسها كروية، بحيث يكون نصف الكرة مظلما والآخر مضيئا وهذه حقيقة قرآنية أخرى تذكر لنا أن نصف الأرض يكون مضيئا والنصف الآخر يكون مظلما.

فلو أن الليل والنهار وجدا على سطح الأرض غير متساوين في المساحة، بحيث كان أحدهما يبدو شريطارفينا، في حين يغطي الآخر معظم المساحة، ما كان الاثنان معا على هيئة كرة، لأن الشريط الرفيع في هذه الحالة سيكون في شكل مستطيل أو مثلث أو مربع، أو أي شكل هندسي آخر حسب المساحة التي يحتلها فوق سطح الأرض، وكان من الممكن أن يكون الوضع كذلك باختلاف مساحة الليل والنهار، ولكن قوله تعالى:{ يكور الليل على النهار ويكون النهار على الليل }.

دليل على أن نصف الكرة الأرضية يكون ليلا والنصف الآخر يكون نهارا، وعندما تقدم العلم وصعد الإنسان إلى الفضاء ورأى الأرض وصورها، وجدنا فعلا أن نصفها مضيء ونصفها مظلم، كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى.

فإذا أردنا دليلا آخر على دوران الأرض حول نفسها لا بد أن نلتفت إلى الآية الكريمة في قوله تعالى:

{ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر من السحاب، صنع الله الذي أتقن كل شيء } النمل 88.
عندما نقرأ هذه الآية ونحن نرى أمامنا الجبال ثابتة جامدة لا تتحرك نتعجب لأن الله تعالى يقول:{ تحسبها جامدة }.

ومعنى ذلك أن رؤيتنا للجبال ليست رؤية يقينية، ولكن هناك شيئاً خلقه الله سبحانه وتعالى وخفى عن أبصارنا، فما دمنا نحسب فليس هذه هي الحقيقة، أي ان ما نراه من ثبات الجبال وعدم حرکتها ليس حقيقة كونية وإنما اتقان من الله سبحانه وتعالى وطلاقة قدرة منه بأنه خلق شيئاً جعلنا نراه على غير حقيقته وتلك طلاقة قدرة الخالق، لأن الجبل ضخم كبير بحيث لا يخفى عن أي عين، فلو كان الحجم دقيقاً لقلنا لم تدركه أبصارنا كما يجب، أو أننا لدقة حجمه لم نلتفت إليه هل هو متحرك أم ثابت، ولكن الله خلق الجبل ضخماً يراه أقل الناس ابصاراً حتى لا يتخرج أحد بأن بصره ضعيف لا يدرك الأشياء الدقيقة. وفي نفس الوقت قال لنا أن هذه الجبال الثابتة تمر أمامكم من السحاب.

ولماذا استخدم الحق سبحانه وتعالى حركة السحب وهو يصف لنا تحرك الجبال؟ لأن السحب ليست لها ذاتية الحركة، فهي لا تتحرك من مكان إلى آخر بقدرتها الذاتية، بل لا بد أن تتحرك بقوة تحرك الرياح، ولو سمنت الرياح لبقيت السحب في مكانها بلا حركة وكذلك الجبال.

الله سبحانه وتعالى يريدها أن نعرف أن الجبال ليست لها حركة ذاتية، أي أنها لا تتنقل بذاتها من مكان إلى آخر، فلا يكون هناك جبل في أوروبا، ثم نجده بعد ذلك في أمريكا وأسيا، ولكن تحركها يتم بقوة خارجة عنها هي التي تحركها، وبما أن الجبال موجودة فوق الأرض فلا توجد قوة تحرك الجبال إلا إذا كانت الأرض ذاتها تتحرك ومعها الجبال التي فوق سطحها.

وهكذا تبدو الجبال أمامنا ثابتة أنها لا تغير مكانها، ولكنها في نفس الوقت تتحرك لأن الأرض تدور حول نفسها والجبال جزء من الأرض، فهي تدور معها تماماً كما تحرك الريح السحاب، ونحن لا نحس بدوران الأرض حول نفسها، ولذلك لا نحس أيضاً بحركة الجبال.

وقوله تعالى: { وهي تمر من السحاب }.

معناها أن هناك فترة زمنية بين كل فترة تمر فيها، ذلك لأن السحاب لا يبقى دائماً بل تأتي فترات ممطرة وفترات جافة وفترات تسقط فيها الشمس، وكذلك حركة الجبال تدور وتعود إلى نفس المكان كل فترة.

وإذا أردنا أن نمضي فالأرض مليئة بالأيات، ولكننا نحن الذين لا ننتبه، وإذا نبهنا أحد فإن الكفار يعرضون عن آيات الله، تماماً كما حدث مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين قال له الكفار في قوله تعالى:

{ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنبر فتجر الأنهر خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفراً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً }

الاسراء_90_92

وكان كل هذا معاندة منهم، لأن الآيات التي نزلت في القرآن الكريم فيها من المعجزات الكثير الذي يجعلهم يؤمنون.

السير في الأرض

والحقائق الكونية في القرآن تتواتي، والآيات تلو الآيات، تربينا اعجاز الخالق ودقته أخبار الخالق لنا عن أسرار السموات والأرض، الله سبحانه وتعالى يقول:

{ قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين } الأنعام 11.

عندما نزلت هذه الآية الكريمة أخذنا معناها على أننا نسير في أنحاء الأرض، ولم ننتبه إلى الحقيقة وهي أننا نسير على الأرض، أي فوق سطحها وليس في بطنها فكيف يقول لنا الحق: سيروا في الأرض}.

ولماذا لم يقل سيروا على الأرض؟ ثم تأتي الحقيقة العلمية وهي أننا فعلًا نسير في الأرض، وليس على الأرض، لأن هناك غلافاً جوياً يحيط بالأرض وهو جزء منها، ونحن لا نخرج من الأرض إلا إذا خرجنَا من هذا الغلاف الجوي.

فالطائرات التي تطير على ارتفاعات مختلفة تطير في الأرض وليس خارج الأرض، ولكن الذي يخرج من الأرض هي سفن الفضاء التي تتجاوز الغلاف الجوي للأرض، وبدون تجاوز هذا الغلاف لا تستطيع أن ترى صورة الأرض كاملة، لأنك ما دمت قد أصبحت خارج هذا الشيء تتضح أمامك الصورة، فأنت خارج العمار مثلاً تستطيع أن تعرف شكل العمار ولكنك من داخلها ومن أي مكان فيها لا تستطيع أن ترى الصورة كاملة.

و على أية حال، فإنه علمياً أنت لا تكون خارج الأرض إلا إذا خرجم من الغلاف الجوي المحيط بها، لأن الأرض والغلاف الجوي شيء واحد.
وقوله تعالى:{سيراوا في الأرض}.

يجعلنا نتساءل أين نسير؟ نحن نسير حقيقة على سطح الأرض ولكننا نسير في الأرض، أي بين سطح الأرض والغلاف الجوي، فما تحتنا هو أرض وما فوقنا هو جزء مكمل للأرض، وهو الغلاف الجوي، وهذا نرى دقة تعبير القرآن الكريم في وصفه لحركة الإنسان في الأرض.
وإذا كان هذا الوصف يعطينا معجزة فإن الأرض نفسها تعطينا معجزة أخرى.

معجزة الخلق في الشجر

نحن نرى ونشي في مزارع الأرض وحدائقيها، ونرى أمامنا الأشجار المختلفة والنباتات المختلفة، ولكن هل نعرف أن النباتات تحصل على غذائها بواسطة جذورها الشعرية الدقيقة، التي تضرب في الأرض، فتأخذ منها عناصر الغذاء التي تعطيها النمو والثمر، هذه الأشجار كيف تغذى؟!

يقول العلماء: إن الغذاء يصعد من جذور النباتات إلى الساق والأوراق والثمار ليغذيها، بواسطة ما يسمى بالضغط الاسموزي، أو نظرية الأنابيب الشعرية، ويدللون على صحة نظريتهم بأنهم يأتون ببناء واسع ويضعون فيه أنابيب شعرية، فترى الماء يصعد فيها، وهكذا أراد العلم أن يفهمنا أن العملية فيها ميكانيكية للغذاء، دون أن يكون فيها آيات الخلق واعجاز الخالق.

نقول: إن هذا التفسير العلمي قد أوضح شيئاً وغابت عنه أشياء، فالماء يصعد فعلاً في هذه الأنابيب الشعرية، ولكنه يصعد بكل محتوياته فأنابيب الشعرية لا تميز بين عناصر الماء، فتأخذ عنصر وتترك عنصراً، ولكن في النبات الأمر مختلف تماماً.

فالغذاء في الأرض بعناصره كله واحد متجانس، ولكن نرى كل شجرة تأخذ من هذا الغذاء ما يناسب ثمارها، أي أنها تختر العناصر اللازمة لها، وتترك الباقي ولا تأخذه، ولذلك نرى الزرع ينبع في مكان واحد ويسقى بماء واحد، ولكن كل ثمرة لها طعم وشكل ولون ورائحة وحجم يختلف عن الأخرى، وهذه مرأة، وهذه كبيرة، وهذه لونها أحمر وهذه لونها أصفر، وهذه لونها أبيض وهذه لها رائحة نفاذة وتلك ليس لها رائحة، أشكال وألوان مختلفة، وكل شجرة من هذه الأشجار تأخذ من الأرض ما يناسبها من عناصر التكوين الدقيق لها بكل تفاصيله وتترك الباقين ونرى شجرة التفاح ثمرها حلو ورائحتها نفاذة، وبجانبها الليمون طعمه حامض، ويجانبها الحنطة طعمه مر، وثمرة نأكلها ونترك ما بداخلها مثل المشمش والخوخ والبلح، وثمرة نزع غلافها لا نأكله ولكننا نرميه كالبرقال والبطيخ، وثمرة لها غلاف هش كالبرقوق مثلاً، وثمرة غلافها جادم قوي لا تستطيع أن تتنزعه بيديك كالجوز واللوز والبندق وجوز الهند، وثمرة صالحة للتخزين أياماً أو أسبوعاً كأنواع من البطيخ، وثمرة صالحة للتخزين شهوراً طويلة كالجوز واللوز.

وأستطيع أن أمضي بلا نهاية في وصف أنواع الثمر المختلفة التي تنبتها الأشجار، ولكنني أفضل أن أذكر الآية الكريمة التي يقول فيها الحق سبحانه وتعالى.

{وفي الأرض قطع متاجرات وجنات أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل، ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون} الرعد 4.

ونحن نمر على الجنات الموجودة في كل أنحاء الأرض ونرى هذه الآيات، ثم بعد ذلك نتساءل: أين الدليل المادي على أن الله هو الخالق؟!!

سبحانك يا ربِّي أقائل:

{وما تأتينهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين} الأنعام 4.
وصدق الله لعظيم في قوله تعالى:{قتل الإنسان ما أكرهه} عبس 17.

الفصل الخامس الأدلة المادية في أصل الكون وأصل الإنسان

في الأنفس والآفاق

الكون مليء بأيات العلم التي تدل على وجود الله، وليس معنى ذلك أننا نستدل على صحة القرآن بالعلم، بل إن القرآن هو المهيمن والمسيطر وهو الحق، وما العلم إلا كاشف لقدرة الله في الكون، فما جاء به القرآن ونحن نؤمن به إيماناً غبيباً لا يرقى إليه أي شك ولا نريد عليه دليلاً. لأن دليلنا ويقيننا أن الله هو الذي قال، ولكننا نكتب هذا الكتاب لنرد على غير المؤمنين. ولذلك فنحن نأتي بالحججة والدليل المادي ما لا يستطيعون أن يردوا عليه، ونحن لا نقدر أن نحيط بكل آيات الله في الكون، ذلك أن آيات الله أكبر من أن يحيط بها بشر مهما كانت قدرته وعلمه. وفي جولة تشمل الكون المحيط بنا وحسب قدراتنا البشرية سنتثبت أن الله آيات ومعجزات ذكرت في القرآن الكريم، واعترف غير المؤمنين أنه لا يمكن أن يكون منزل هذه الآيات إلا الله سبحانه وتعالى، ولذلك فانا سنجو布 الكون لنعطي مثلاً واحداً على عدة أماكن، ففي خلق الإنسان آيات، وفي الجبال آيات، وإذا صعدنا إلى السماء وجدنا آيات، وإذا نزلنا إلى باطن الأرض كانت هناك آيات، وإذا عصنا في أعماق البحار كانت هناك آيات، كل هذا موجود، نحن سنعطي لمحات، لأننا إذا أردنا أن نحيط بكل شيء فنحن نحتاج إلى مجلدات كثيرة. وكما قلت فإن أي تصادم بين القرآن والعلم لا يمكن إلا أن تكون النظرية العلمية خاطئة، أو يكون فهمنا للقرآن غير سليم، وقد تحدثنا عن ذلك في الفصل السابق.

الله سبحانه وتعالى قال في كتابه الكريم:

{سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق} فصلت 53.

ومعنى سنريهم، أي سيرون رؤية العين، ورؤية يقين، ومعنى قوله تعالى: {حتى يتتبين لهم أنه الحق} هو أن الذين سيرون غير المؤمنين، والا لو كانوا مؤمنين لعرفوا أنه الحق، ولما احتاجوا إلى هذا الدليل المادي، ولذلك فان عدداً من غير المؤمنين سيكتشف الله لهم عن آياته في الكون، فلا يستطيعون أن ينكروا أنها من عند الله، ولا يستطيعون أن يتذمرون ويقولون أن هذا من عند أي بشر، ولا يستطيعون أن يدعوا أنها المصادفة، ولا يمكنهم إلا أن يعترضوا ولكنهم لا يؤمنون.

ولقد اخترنا في هذا الفل أقوال عدد من العلماء الغربيين، كلهم قبل أن يبدأوا الحديث قلوا: إننا علماء لا نصدق إلا ما نرى، ولا نتعامل إلا مع الأشياء المادية البختة. ولقد تجنبت الحديث عما قاله علماء مسلمون ولهم كثوفهم العلمية. وبعضهم يعيش في الغرب وله مكانته العلمية، ذلك أن الإنسان المؤمن مندفع بحماس الإيمان إلى أن يصل إلى نتائج، لأنه يجب أن يظهر اعجز القرآن وفيه حماس لأن يجعل غيره يؤمنون، ولذلك استبعدت كل ما قالوه، وأخذت من أقوال الذين بدأوا جدالهم بأنه لا علاقة بين العلم والدين، بل ادعوا لأنهما نقىضان لا يلتقيان.

فالعلم يتحدث عن أشياء واقعية ترى وتشاهد، والدين يتحدث عن أشياء غيبية يؤمن بها الناس، وكان هذا في رايهم هو نقطة عدم الالقاء ولكننا نقول لهم: أنه لا الزام عليكم فأنتم غير مؤمنين، تستطعون أن تقولوا إن ما جاء في القرآن يختلف مع العلم، ذلك انه لا حرج عليكم فيما تقولون، وأنتم لن تخالفوا ضمائركم، ونحن على يقين من أن الله سبحانه وتعالى هو خالق الكون، وأن القرآن الكريم هو كلام الله، وإذا تكلم عن كونه فهو أعلم منا جميما.

خلق الجنين في القرآن

إذا أردنا أن نبدأ بمعجزة الجنين وما يذكر عنها في القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرنا، وما كشفه العلم يقيناً وصوره وعرض علينا صوره، إن علم الأجنحة لم يعرفه العالم بشكل واضح إلا في القرن العشرين، ففي القرن السابع عشر كان العلم يقول: الإنسان خلق خلقاً كاملاً في الحيوان المنوي للرجل على صورته الإنسانية، أي أنك إذا أخذت الحيوان المنوي واستطعت أن تكبره وجدت فيه الإنسان بكامل تفاصيله ملحاً كاملاً، أي أن الإنسان لا يخلق على اطوار في بطن أمّه بل يخلق مرة واحدة.

ولكن في القرن الثامن عشر تغيرت الصورة عندما اكتشفوا بويضة المرأة وركز العلم على دور المرأة في الحمل وأهملوا دور الرجل، وقالوا: إن بويضة المرأة هي التي فيها الإنسان الكامل لأنها الأكبر، وأن نطفة الرجل هي مجرد عملية تلقيح فقط لا غير، وظل هذا الرأي سائداً حتى القرن العشرين، وجاء العلم الحديث ليغير الصورة تماماً، ويعطينا صورة جديدة للجنين في بطن أمّه، ويأتي بصور تثبت ذلك، حتى ان العملية أصبحت أمراً يقينياً لا يمكن تصوير الجنين وهو ينطهر وينمو في بطن أمّه.

وكان للقرآن الكريم في هذا كلمة، ذلك أن القرآن جاء بوصف دقيق لأطوار الجنين منذ أربعة عشر قرنا، يوم أن كانت الدنيا كلها بكل من فيها وما فيها لا تعرف شيئاً مما في بطن الأم، وذكر القرآن الكريم لهذه الآيات لا يمكن أن يأتي إلا إذا كان هذا القرآن منزلاً من عند الله.

ومحمد النبي الأمي صلى الله عليه وسلم لم يكن يملك من العلم البشري شيئاً، وحتى لو كان يملك فلم يكن علم البشر يعرف شيئاً، وكما قلت فإن المخاطرة بذكر شيء علمي في القرآن لا يمكن أن يقدم عليها بشر، لماذا؟ لأن القرآن هو كلام الله الذي لا يتغير ولا يتبدل والمتبعد بتلاوته إلى يوم القيمة، فكيف يكون موقف الدين وموقف المسلمين إذا ذكر في القرآن شيء يمس العلم البشري، ثم جاءت الأبحاث وتقدمت العلوم واكتشفت أن هذا غير صحيح؟ كانت ستضييع قضية الدين كلها، وما الذي يجعل محمد صلى الله عليه وسلم يخوض في هذه الأشياء التي كانت البشرية كلها تجهلها، فيستطيع باعطاء أعداء الدين ما يهدموه به.

ماذا قال القرآن الكريم عن أطوار الجنين؟

قال الله سبحانه وتعالى: {ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنثيأناه خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين} المؤمنون 12_14.

فإذا بدأنا بهذه الآية تفصيلاً، فهي تذكر أولاً أن خلق الإنسان من طين، ومعنى ذلك أنها حددت المادة التي خلق منها الإنسان وهي الطين، والطين موجود في كل مكان من الأرض، والعلماء

اخذوا الطين وحطوه، فوجدوه يتكون من ثمانية عشر عنصرا، منها الحديد والبوتاسيوم والمغنيسيوم وغير ذلك من المواد، ثم درسوا جسم الانسان فوجدوه يتكون من نفس هذه المواد، وهي الثمانية عشر عنصرا التي يتكون منها الطين، وهكذا جاءت الحقيقة الأولى، حقيقة مشاهدة معملية لا تخضع للجدل، ثم بدأ القرآن في وصف خلق الانسان في بطن امه فنقول الآية الكريمة: { ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة }.

والقرار المكين هو رحم الأم، ثم تأتي مسألة العلقة، وترك الحديث للبروفيسور الكندي " كيث ل. مور" وهو من أشهر علماء العالم في علم الأجنة ورئيس قسم التشريح والأجنة في جامعة تورونتو بكندا، ورئيس الاتحاد الكندي الأمريكي لعلماء الأجنة، وله عدة كتب مترجمة إلى ثمانية لغات، وهو الحائز على الجائزة الأولى في العالم عن كتابه " علم الأجنة "، هذه الجائزة التي تعطى لحسن الكتاب تأليفا.

قال الدكتور كيث ل. مور: ان الجنين عندما يبدأ في النمو في بطن امه يكون شكله يشبه العلقة أو الدودة، وعرض الصورة بالأشعة لبداية خلق الجنين ومعها صورة للعلقة، ظهر التشابه واضحا بين الاثنين، ولماقيل له: ان العلقة عند العرب معناها الدم المتجمد، ذهل وقال ان ما ذكر في القرآن ليس وصفا دقيقا لشكل الجنين الخارجي، ولكنه وصف دقيق لتكوينه، ذلك أنه في مرحلة العلقة تكون الدماء محبوسة في العروق الدقيقة في شكل الدم المتجمد. فإذا جئنا إلى المرحلة الثانية في قوله تعالى: { فخلقنا العلقة مضغة }.

نعلم أن القرآن الكريم جاء بالوصف الدقيق، فعندما عرضت صورة الأشعة المأخوذة للجنين وهو في مرحلة المضغة، وصورة قطعة من الصلصال أو اللبان الممضوغ، وجد الشكل واحدا، ثم أظهرت صورة الأشعة التي التقطت للجنين في مرحلة المضغة وأن فيها تجويفات تشبه علامات الأسنان، بل ان الله سبحانه وتعالى قد تجاوز مرحلة الشكل الخارجي الى التكوين الداخلي، فقال جل جلاله:

{ مضغة مخلقة وغير مخلقة }. الحج 5.

وعندما جاء بالمضغة الآدمية من بطن الأم وطولها سنتمتر واحد، وتم تشير لها تحت الميكروس코ب الإلكتروني، وجد أن بعض أجهزة الجنين بدأت تتشكل وبعضها لم يتطلق، ولو أن القرآن الكريم قال مضغة مخلقة، لكن ذلك لا ينطبق على حقيقة التكوين، لأن فيها أجزاء غير مخلقة.

ولو قال القرآن الكريم مضغة غير مخلقة لكان ذلك لا ينطبق على حقيقة التكوين لأن فيها أجزاء مخلقة، ولكن الوصف الدقيق الوحيد الذي ينطبق على المضغة هو قوله تعالى: { مضغة مخلقة وغير مخلقة }.

ولقد عرض العالم الكندي كل أطوار الجنين في بطن امه، والتي التقطت بأحدث الأجهزة العلمية، فإذا هي تتطبق تماما على كل ما ذكر في القرآن الكريم. من مراحل تكوين العظام واللحام إلى غير ذلك.

ولما قيل للدكتور : هل كان من الممكن أن يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم كل هذه التفصيات عن أطوار الجنين؟ قال: مستحيل ان العالم كله في ذلك الوقت لم يكن يعرف أن الجنين يخلق أطوارا، فما بالكم بتتحديد هذه المراحل التي لم يستطع العلم حتى الآن تسمية أطوار الجنين، بل أعطاها أرقاما بشكل معقد غير مفهوم، في حين جاءت في القرآن بأسماء محددة وبسيطة وغاية في الدقة يتضح لي بأن هذه الأدلة حثما جاءت لمحمد من عند الله، وهذا يثبت لي

أن محمد رسول الله، فقبل له: بعد أن قلت ما قلت، أ فلا تسلم؟ فقال: انه مستعد أن يضع في الطبعات القادمة من كتبه اشارة الى ما علمت.

ولقد قريء معنى الآيات التي جاءت في القرآن الكريم على أكبر علماء الأجيال في العالم، فلم يجرؤ أحد منهم من ان يدعي أن هناك تصادما بين ما جاء في القرىن الكريم وأحدث ما وصل اليه العلم.

النطفة والوراثة

ولكن احدهم أثار ان الوراثة أو البرنامج الوراثي للانسان يوجد في نطفة الرجل، ويتحدد فيها تفاصيل الانسان الذي سيولد ذكر او أنثى، ما هو لون العينين ولون الجلد ولون الشعر الى آخره، أي أن الانسان تكون صفات خلقه موجودة في شفرة خاصة في نطفة الرجل، فلما قرئت عليه الآية الكريمة:

{قتل الانسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره} عبس 17_19 .
قال: لا يمكن أن يكون هذا الا من عند الله.

هذه الأبحاث كلها التي ذكرتها وشهادات العلماء مدونة ومسجلة بالصوت والصورة في المؤتمرات المتعاقبة عن الاعجاز في القرآن الكريم، وهي مؤتمرات عقدت في الدول الإسلامية المختلفة، ويستطيع كل من يريد أن يرجع إلى هذه الأشرطة ويشاهد هؤلاء العلماء وهم يتحدثون ويتكلمون، بل ان عالما منهم شهر اسلامه، وشهاد أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله امام الحاضرين في أحد هذه المؤتمرات وهو البروفيسور التايلاندي " تاجاثات تاجاسن " وهو من أكبر علماء العالم في علم التشريح، وذلك عندما كان يتحدث عن الأعصاب، وكيف أنها موجودة تحت الجلد مباشرة، بحيث اذا احترق الجلد انتهى الاحساس بالالم تماما، والله سبحانه وتعالى يقول عن أهل النار: {كما نضجت جلودهم بدلناتهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب} النساء 56 . ذلك أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن عذاب النار، عذاب دائم مستمر لا يخف ولا يتوقف، ولما كان في علمه سبحانه وتعالى وهو الخالق، لا يخف ولا يتوقف، ولما كان من علمه سبحانه وتعالى وهو الخالق، أن الجلد اذا احترقت انتهى الاحساس بالالم، نبهنا أن جلد أهل النار كلما احترقت بدلهم الله جلودا غيرها ليستمر شعورهم بالعذاب.

وعندما عرض معنى هذه الآيات على البروفيسور تاجاثات جاسن، قال: أهذا الكلام قيل منذ أربعة عشر قرنا؟ قالوا: نعم قال: ان هذه الحقيقة لم يعرفها الا العلم الحديث، ولا يمكن أن يكون قائلها بشر، بل هي من الله سبحانه وتعالى، وحان الوقت لأن أشهد أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله.

ولنا أن نتأمل هذه الآية الكريمة: {كما نضجت جلودهم بدلناتهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب}.
ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن الله سبحانه وتعالى لم يلفتنا إلى أنه كلما احترقت جلد أهل النار بدلهم غيرها، أكان من الممكن أن نعرف كيف سيستمر عذاب اهل النار بلا توقف وأن احساسهم بالعذاب دائم؟

الحقيقة العلمية تقول: ان الأعصاب موجودة تحت الجلد، فإذا احترق الجلد فلت يحس الإنسان بالألم، وهذا ما بينه لنا القرآن الكريم عن كيفية استمرار العذاب، كان الكفار العاصون سيقولون ستعذب فترة قصيرة حتى تحترق جلودنا، ثم بعد ذلك لا نحس بأي عذاب أو ألم، ولكن هذا تشجيعاً للانسان على الاستهانة بعذاب الله في الآخرة، لأنه لن يستمر العذاب إلا لفترة قصيرة يحترق الجلد فيها وتموت تحته الأعصاب وينتهي العذاب، لوجد هناك تصادم بين القرآن الكريم والحقائق العلمية، في أن الكفار سيدخلون في عذاب جهنم، وذلك في قوله سبحانه وتعالى:

{ ان المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون } الزخرف 74_75.

ولا يفتر معناها، لا يخفف، فكيف يقول الله سبحانه وتعالى ان أهل جهنم سيدخلون في العذاب، وأنه لن يخفف عنهم، مع أنهما اذا احترقت جلودهم فقدوا الاحساس بالألم، وهذا ما لم يعرفه البشر الا حديثاً؟! ألا يكفي هذا كدليل مادي على أن القرآن الكريم من عند الله؟ ألا يكفي هذا أيضاً كدليل مادي، على أن الذي خلق هو الذي قال وإذا كان هذا قد دفع عالماً من أكبر علماء التشريع وهو العارف بأسرار هذا العلم، أن يعلن إسلامه أمام الناس في مؤتمر عام، وقد بهره الاعجاز الالهي ووجد بين يديه الدليل المادي على وجود الله فنطق بالشهادتين، ألا يكفي هذا ليؤمن العالم كله ويؤمن أهل الأرض جميعاً؟

الأصل الواحد للكون

ونحن نكتفي بهذا الجزء بالنسبة للانسان، ذلك أننا نريد أن نتحدث عن آيات أخرى في الكون بالنسبة لغير الانسان، بالنسبة للكون نفسه، والأصل الواحد للكون.

يقول الله سبحانه وتعالى:

{أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقاها، وجعلنا من الماء كل شيء حي، أفلأ يؤمنون} الأنبياء 30.

لقد عرض معنى هذه الآية في مؤتمر الاعجاز القرآني في السعودية على الدكتور ألفرد كرونر، وهو من أشهر علماء العالم في الجيولوجيا، وعندما قرأ المعنى أخذ يصيح: مستحيل، مستحيل أن تكون هذه الحقائق قد ذكرت في أي كتاب منذ أربعة عشر قرنا. إننا لم نصل إلى هذه الحقيقة العلمية إلا منذ سنوات، وباستخدام وسائل علمية متقدمة جداً وبعد دراسات معقدة طويلة خاصة بعلم الطبيعة النبوية، والأصل الواحد للكون لا يمكن أن يكون قد توصل إليه بشر منذ ألف وأربعين سنة، ولكن الوسائل العلمية الحديثة الآن في وضع تستطيع أن تثبت ما قاله محمد منذ ألف وأربعين سنة.

ولعلنا جميعاً نذكر تجربة صعود الانسان الى القمر، وكيف كان العلماء يحلمون قبل اتمام هذه التجربة بالعناصر النادرة التي سيجدونها على سطح القمر، وبالمواد التي سيحضرونها، وكيف أنه سيكون فيها مواد تشفي أمراضاً لا يوجد لها دواء على الأرض ومواد إذا أضيفت لعناصر الأرض نتجت عنها عناصر جديدة لم تعرفها البشرية وأخذت أحالمهم تزداد بما يضيفونه الى الكورة الأرضية من عناصر غير موجودة، واشتد الخيال وامتلاء الرؤوس بالأحلام.

ثم ماذا حدث؟ صعد الانسان الى القمر ومشى فوق سطحه، وجاء بعينات من الصخور الموجودة تحت السطح وعادوا بها الى الأرض. وإذا بهم يكتشفون أن سطح القمر مكون من نفس عناصر سطح الأرض، وأن صخور القمر في تركيباتها هي نفس صخور الأرض وأنهما من أصل واحد. ألم يكن هذا كافياً كدليل مادي قوي لكي يؤمنوا؟ ألم يكن ثبات نظرية الأصل الواحد للسموات والأرض، الذي أخبرنا الله به سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، ومنذ أكثر من ألف وأربعين سنة دليلاً كافياً على وجود الله، وعلى أنه الخالق؟

إن العالم الذي قال: إن الوسائل العلمية الحديثة الآن في وضع تستطيع أن تثبت ما قاله محمد منذ ألف وأربعين سنة، وهو البروفيسور ألفريد كرونر، عالم مراوغ جداً، حتى أنه كان يحاول أن يتهرب من الاجابة، لكيلاً يشهد بان هذا العلم قد أنزل من الله سبحانه وتعالى، حتى أنه في كل ما كان يقول: (إن محمد قال) فقالوا له: سثبت لك أن محمد لم ينطق إلا بحبي من الله، وأنه في عدد من الأحاديث النبوية اعجز نرجو أن تفسره لنا.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث رواه أبو هريرة يقول في جزء منه: (لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً)، أي مزارع وبساتين وأنهاراً، ولما سئل الدكتور كرونر هل كانت ارض العرب بساتين وأنهار كما روى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم، فقيل له متى كان ذلك؟ قال: في العصر الجليدي الأول الذي مر به العالم في عصوره الأولى.

وسئل كرونر: ومن الذي أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الحقيقة؟ قال: ربما علم بذلك من الرومان الذي كانوا متقدمين في هذه العلوم، فسألوه هل تعود بلاد العرب بساتين وأنهار مرة أخرى؟ قال: نعم هذه حقيقة علمية، قالوا: كيف تقول على شيء يقع في المستقبل أنه حقيقة

علمية، قال: لأن العصر الجليدي الثاني بدأ، ومن مقدماته ذلك الشتاء القارس والعواصف التلجزية التي بدأت تزحف على أوروبا في السنوات الأخيرة وكل شتاء يأتي سيكون أقسى من الذي قبله، فكتلة الجليد في القطب الشمالي بدأت تزحف ببطء نحو الجنوب، وهي في كل عام تقترب، ولكن ببطء جداً من المنطقة التي فيها بلاد العرب، عندما يزداد هذا الاقتراب بعد فترة طويلة من منطقة بلاد العرب ستعود بساتين وأنهاراً.

وعندما سئل الدكتور كرونر: هل الرومان هم الذين أخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن بلاد العرب ستعود بساتين وأنهاراً؟ قال: لا يمكن أن يحدث ذلك إلا بمحض من السماء.

اعجاز يتلوه اعجاز

نعود إلى الآية الكريمة:

{أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رثقا ففتقناهما، وجعلنا من الماء كل شيء حي، أفلًا يؤمنون} الأنبياء 30.

في هذه الآية أعطانا الله سراً من أسرار الحياة وهو الماء.

ولقد أصبح هذا حقيقة علمية يعترف بها العالم أجمع، فالصور الحديثة التي تلتقط بالأقمار الصناعية وسفن الفضاء والكواكب القريبة من الأرض، يستطيع العلماء أن يتتبّلوا إذا كان في هذه الكواكب حياة أم لا؟ رغم أن هذه الصور لا تأتي بالتفاصيل الدقيقة التي تبين إذا كانت هناك مخلوقات موجودة على سطح هذه الكوكب أم لا؟

ولكن مجرد علمهم بأن الصور لا تدل على وجود الماء على سطح الكواكب فإنهم يؤكدون أنه لا حياة فيه، فإذا كان هناك ما يشير إلى أن الماء موجود تحدثوا عن احتمالات الحياة، وعملية وجود الماء هي من قدرة الله سبحانه وتعالى التي احتفظ بها لنفسه، وهي عندنا في الأرض تتم دون عمل من الإنسان، بل هي عطاء من الله، بخار الماء يتتصاعد من البحار والمحيطات، ويتكثف في طبقات الجو العليا وينزل مطرًا، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى:

{أفرأيتم الماء الذي تشربون أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشکرون} الواقعة 68_70.

اذن الماء هو رزق من السماء بقدرة الله، وكل من يدعى غير ذلك نطالبه أن ينشيء لنا نخراً صغير وسط الصحراء، ويملاه بالماء ان كان يستطيع، ولن يستطيع، ولكن اعتراف العلم وبقائه من أن وجود الماء معناه وجود الحياة، لم يلفتهم إلى ما ذكره القرآن الكريم منذ أربعين عشر قرناً، وكان يجب ان يتلقوا الى هذا الاعجاز، فيؤمنوا بالله خالقاً موجوداً والها واحداً، ولذلك يقول الحق جل جلاله:{أفلًا يؤمنون}.

السماء والدخان وأصل الخلق

لقد قدم لهم الدليل المادي في الأصل الواحد للسموات والأرض، ومن ان الماء هو سر الحياة، فان لم يؤمنوا، حينئذ يكون عدم ايمانهم مكابرة وعنادا، ويكون عذابهم في جهنم عدلا من الله، الذي أطعاهم الدليل تلو الدليل، ومع ذلك لا يؤمنون.

و قبل أن نترك السماء وأياتها، لا بد أن نتحدث عن الاعجاز في خلق السموات والأرض، نحن ننظر الى السماء ونرى أشياء وتغيب عنا أشياء مثلا عندما عرض معنى الآية الكريمة:

{ ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض اتئيا طوعا او كرها قالتا أتينا طائعين }

فصلت 11.

قرأ البروفيسور يوشيدي كوزاي مدير مرصد طوكيو هذا الكلام وقال: ان العلم لم يصل الا منذ فترة بسيطة جدا الى أن السماء كانت دخانا وقد أصبح هذا شيئا مشهودا ومرئيا الان. بعد اطلاق سفن الفضاء والأقمار الصناعية وعرض صور التقطت لنجم من السماء وهو يتكون، وقد بدا كثلة من الدخان وفي وسطها تكون الجزء المضيء من النجم وحوله الدخان وتحيط لالدخان حافة حمراء دليل على ارتفاع درجة الحرارة.

وقال: لقد كنا نعتقد منذ سنوات فقط أن السماء كانت ضبابا ولكننا عرفنا الان بعد التقدم العلمي بأنها ليست ضبابا ولكنها دخان، لأن الضباب خامد وبارد، والدخان حار وفيه حرارة، هذا يدل على ان السماء كانت دخانا، وقال: انني متاثر جدا باكتشاف هذه الحقيقة في القرىن.

و اذا كانا نريد أن نمضي في التفاصيل، ليقتصر من لن يقتصر، فاننا نستعرض بسرعة ما قاله أشهر علماء العالم في مؤتمرات الاعجاز العلمي في القرآن، الدكتور أستروخ وهو من أشهر علماء وكالة ناسا الاميركية للفضاء، قال: لقد أجرينا أبحاثا كثيرة على معادن الأرض وأبحاثا معملية، ولكن المعلم الوحيد الذي يغير العلماء هو الحديد لها تكوين مميز، ان الالكترونيات والنبيرونات في ذرة الحديد لكي تتحدد فهي محتاجة الى طاقة هائلة تبلغ أربع مرات مجموع الطاقة الموجودة في مجموعتنا الشمسية، ولذلك فلا يمكن أن يكون الحديد قد تكون على الأرض، ولا بد أنه عنصر غريب وفد إلى الأرض ولم يتكون فيها، فلما ترجموا معنى الآية الكريمة:

{ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس } الحديد 25.

قال: ان هذا الكلام لا يمكن أن يكون من كلام بشر.

وفي البحار أيضا

فإذا تركنا السماء وأسرارها ونزلنا الى أعماق البحار وجدنا شيئا عجيا، ان الصور الحديثة التي التقطت للبحار قد أثبتت أن بحار الدنيا ليست موحدة التكوين، بل هي تختلف في الحرارة والملوحة والكتافة ونسبة الأكسجين، وفي صورة التقطت بالأقمار الصناعية، ظهر كل بحر بلون مختلف عن البحر الآخر، فبعضها أزرق فاتح، وبعضها أسود وبعضها أصفر، وذلك بسبب اختلاف درجات الحرارة في كل بحر عن الآخر، وقد التقطت هذه الصورة بالخاصية الحرارية، وبالاقمار الصناعية ومن سفن الفضاء، وظهر خط أبيض رفيع يفصل بين كل بحر وآخر، فإذا قرأت الآية الكريمة:

{ مرج البحرين يلتقيان بينهما بربخ لا يبغيان } الرحمن 19_20.

نجد أن وسائل العلم الحديثة قد وصلت إلى تصوير البرزخ بين البحرين، وبينت معنى لا يُعيّن، بأن مياه بحر حين تدخل إلى البحر الآخر عن طريق البرزخ، فإنها تأخذ وقت دخولها خصائص البحر الذي تدخل فيه، فلا تتبعي مياه بحر على مياه بحر آخر فتغيرها.

ولقد تم الوصول إلى هذه الحقائق بعد اقامة مئات المحطات البحرية، والتقط صور بالأقمار الصناعية، والذي قال هذا الكلام هو البروفيسور شرايدر، وهو من أكبر علماء البحر بألمانيا الغربية، كان يقول: اذا تقدم العلم فلا بد أن يتراجع الدين، لكنه عندما سمع معاني آيات القرآن الكريم بهت وقال:

ان هذا لا يمكن أن يكون كلام بشر.

ويأتي البروفيسور دورجاروا أستاذ علم جيولوجيا البحار ليعطينا ما وصل إليه العلم في قوله تعالى:

{ أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض اذا اخرج يده لم يكدر يراها، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور } النور 40.

فيقول: لقد كان الإنسان في الماضي لا يستطيع أن يغوص بدون استخدام الآلات أكثر من عشرين متراً، ولكننا نغوص الآن في أعماق البحار بواسطة المعدات الحديثة فجد ظلاماً شديداً على عمق مائتي متر.

الآية الكريمة تقول:{ بحر لجي }، كما أعطتنا اكتشافات أعماق البحر صورة لمعنى قوله تعالى: { ظلمات بعضها فوق بعض }.

فالمعروف أن ألوان الطيف سبعة، منها الأحمر والأصفر والأزرق والبرتقالي إلى آخره، فإذا غضنا في أعماق البحر تختفي هذه الألوان واحداً بعد الآخر، وانخفاء كل لون يعطي ظلمة. فالأحمر يختفي أولاً ثم البرتقالي ثم الأصفر، وأخر لوان الانخفاء هو اللون الأزرق على عمق مائتي متر، كل لون يختفي يعطي جزءاً من الظلمة حتى تصل إلى الظلمة الكاملة، أما قوله تعالى: { موج من فوقه موج }، فقد ثبت علمياً أن هناك فاصلة بين الجزء العميق من البحر والجزء العلوي، وأن هذا الفاصل مليء بالأمواج، فكان هناك أمواجاً على حافة الجزء العميق من البحر وهذه لا نراها، وهناك أمواجاً على سطح البحر وهذه نراها، فكأنها موج من فوقه موج وهذه حقيقة علمية مؤكدة.

ولذلك قال البروفيسور دورجاروا عن هذه الآيات القرآنية: ان هذا لا يمكن أن يكون علمًا بشرياً.

الجبال والأوتاد

وإذا كانت العلوم الحديثة أكدت أن للجبال جذوراً عميقاً في الأرض، وهو لم يكن معروفاً، ففي كل الخرائط الجغرافية تظهر الجبال بلا جذور ممتدة داخل الأرض، ولكن الصور الأخيرة التي التقطت للجبال، ظهر فيها أن لكل جبل وتداد يقويه يسميه العلماء جذراً، وأن هذا الجذر يمتد إلى أعماق بعيدة، وهذا ظهر اعجاز الآية الكريمة:

{ ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أدواتاً } النبا_6_7.

ثم جاءت حقيقة أخرى في قوله تعالى:

{ ألم غالب الروم في أدنى الأرض } الروم_1_3.

وقد فسرت أدنى الأرض على أساس أنها قريبة من أرض العرب، فقد حدثت المعركة قرب بيت المقدس، وجاءت الخرائط الجيولوجية التي صورت أخيراً بالأقمار الصناعية، لتثبت أن المنطقة التي دارت فيها المعركة هي أكثر الأماكن انخفاضاً على سطح الأرض، لأن أدنى تعني المكان المنخفض.

لقد أوردنا عدداً من الأبحاث التي تمت في مؤتمرات الاعجاز العلمي للقرآن الكريم، والتي شارك فيها عدد من أكبر علماء العالم في مختلف فروع العلم من غير المؤمنين، والذين شهدوا جميعاً أن الآيات القرآنية التي قرئت عليهم معانيها، لا يمكن أن تكون إلا من وحي الهي، ومن خالق لهذا الكون، نقول للناس جميعاً: يكفي أن كل ما قلناه كأدلة علκية على وجود الله، كلها جاءت من أفواه الذين لا يؤمنون، ورفضوا الإيمان حتى بعد أن سمعوا الاعجاز القرآني.

إن كل ما أوردناه ليس مجال بحث ولكنه قائم على المشاهدة والرؤيا، وعلى صور عرضت وقدمت، ولم يكن الذين قدموها هذه الصور يفهمهم اثبات معجزات وأيات القرآن الكريم، بل إن معظمهم كان يقول: إذا جاء العلم فليتراجع الدين، وبعضهم عارض في أول الأمر في الاشتراك في حوار يدخل فيه الدين.

وإذا كان الله تعالى قد استخدم غير المؤمنين في اثبات قضية الإيمان، فلا بد أن نعلم أن المؤمن والكافر كليهما يخدم قضية الإيمان في الكون.

الفصل السادس وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

اعجازات القرآن

الله سبحانه وتعالى جعل القرآن معجزة باقية إلى يوم القيمة، ولذلك وضع فيه الدليل تلو الدليل على ما يتحدى به غير المؤمنين ليرد على ادعائهم، وقد قيل إن عصر المعجزات انتهى، ولكن معجزات القرآن لا تنتهي حتى تقوم الساعة، ومعاني الآيات لا تتضح في عصر واحد.

بل كل عصر نصل إلى معنى لم نكن قد وصلنا إليه، والقرآن معجزة ومنهج، المنهج وهو ما رسمه الله لنا كطريق للعبادة والحياة ثم تفسيره وبيانه كاملاً في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالعبادات والمعاملات وغيرهما فيما يتصل بـ "افعل" و "لا تفعل" بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فالصلوات الفروضية فيه مثلاً خمس لا تزيد ولا تنقص إلى يوم القيمة، وكذلك الأحكام وكل ما يتعلق بمنهج السماء، كلها أشياء حسمت وبيّنت تماماً، ولكن المعجزة في القرآن الكريم هي التي بقيت لتعطي كل جيل معنى اعجازياً لم يصل إليه الجيل الذي قبله.

ولو أن معجزة القرآن توقفت عند نزول القرآن لحمد القرآن فلم يعد يعطي شيئاً جديداً، ولكن لأن هذا الكتاب معجزة باقية متعددة، فهو يعطي لكل جيل عطاء جديداً، وهذا نجد في كل عصر عطاء للقرآن لم يكن موجوداً في العصر الذي قبله.

فإذا قرأتنا مثلاً الآية الكريمة:

{ غالب الروم في أدنى الأرض } الروم 1_3.

وحنّنا أن أدنى حين نزل القرآن كانت "كما قلنا" بمعنى المكان القريب من أرض العرب، ولما تقدم العلم واستطاع الإنسان أن يصور سطح الأرض بالأقمار الصناعية، وجد أن مكان المعركة بين الروم والفرس هو أكثر الأماكن انخفاضاً على سطح الأرض، وإذا قرأتنا الآية الكريمة:

{ إذ أنت بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم } الأنفال 42.

نجد أن الله سبحانه وتعالى قد حدد ثلاثة مواقع: موقع المؤمنين وهم قريبون إلى المدينة المنورة، وموقع الكفار وهم بعيدون عن مكة المكرمة، أي أن المؤمنين أقرب إلى مدينتهم وأهلهم، والكافر بعيدون عن مدينتهم وأهلهم، ثم قال تعالى: { والركب أسفل منكم }.

والركب هو قافلة أبو سفيان التي أفلتت من المؤمنين.

والمعروف أن أبي سفيان لكي يفلت من المؤمنين غير مساره واتخذ طريق الساحل وهنا يجب أن نلتقط إلى قول الله تعالى:

{ أسفل منكم }.

أي موقع منخفض عنكم.

والمعروف أن ساحل البحر هو أكثر الأماكن انخفاضاً في الأرض، ولذلك تقاس كل الارتفاعات بسطح البحر، فيقال: هذا المكان يعلو ألف متر مثلاً عن سطح البحر أو مائة متر أو غير ذلك.

اذن فسطح البحر المقياس الذي اتخذه العالم كله بيساوي صفراً في الارتفاع، تقاس عليه كل الارتفاعات في الدنيا، ولذلك قوله تعالى: { أسفل منكم } يلفتنا إلى هذه الحقيقة، ولكن القرآن الكريم لم يكتف بأن يبين هذا، بل بين لنا أن هناك بقعة على سطح الأرض هي أكثر انخفاضاً على سطحها، وهي التي دارت عليها المعركة بين الفرس والروم.

و اذا قرانا القرآن الكريم، نجد ان الحق سبحانه وتعالى قد لفتنا الى مصدر العلم للبشرية كلها، فقال سبحانه وتعالى:
{ و علم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين }
البقرة 31.

وهكذا حدد القرآن الكريم في اعجاز مذهل مدخل العلم لى البشر، فأنت حين تريد أن تعلم طفلك عندما يبدأ يميز الأشياء، لا بد أن تعلمه الأسماء أولاً، فتقول له: هذا كوب، وهذا قلم وهذا كرسي، وهذا طعام إلى غير ذلك.

ونحن نقول اذا لم نعلم الطفل هذا فإنه لا يستطيع أن يفهم شيئاً ولكنه اذا تعلم الأسماء أصبح بعد ذلك قادراً على استيعاب العلم، ولذلك ففي الدنيا كلها وبالنسبة للبشرية كلها، لا بد أن نبدأ بأن نعلم أطفالنا أسماء الأشياء، ثم بعد ذلك تختلف نظم التعليم من دولة إلى أخرى ومن طريقة إلى طريقة، ولكنها كلها لا بد أن تبدأ بتعليم الأسماء، وهكذا نعرف أن بداية العلم من الله سبحانه وتعالى.

فقد بدأ الحق جل جلاله بتعليم الإنسان الأسماء، وما زالت هذه البداية موجودة حتى الآن في كل نظم التعليم، الأسماء أولاً، فإذا تعلم الطفل الأسماء بدأ يستوعب أي شيء آخر، ونحن لا نعلم الطفل الأسماء في المدرسة فقط.

ولكن هذا هو علم الفطرة، تبدأ الأم مع طفليها قبل أن يذهب إلى المدرسة، والأم المتعلمة وتلك التي لم تتل حظاً من التعليم، كلتاها تبدأ بتعليم ابنها الأسماء، لأن علم الفطرة تكون منه البداية دائماً، ثم بعد ذلك يتتطور ويتبديل، ولا يمكن أن يتم التفاهم بين الأم وطفليها ولا بين طفل وطفل آخر إلا إذا تعلماً الأسماء أولاً، والعلم في الدول المتقدمة والدول المتخلفة أيضاً لا بد أن يبدأ بالأسماء باعتبارها أساس التفاهم في الحياة، ولكن هناك اعجاز آخر بالعلم البشري لا بد أن نلتفت إليه، وهو يحمل علينا الدليل اللغوي على وجود الله.

اللغة تدل على الوجود

فاللغة أساس التفاهم بين البشر، واللغة ليست بيئية ولا حضارة ولا جنساً ولا لوناً، ولكنها تعتمد أساساً على السمع، فإذا سمع الإنسان تكلم، وإذا لم يسمع لا يتكلم، ولذلك تجد دائماً أن الأصم الذي لا يسمع أبكم لا ينطق، فيقال دائماً: الصم والبكم، لأن أساس الكلام هو السمع.

ولكي نفهم هذه الحقيقة جيداً وهي أن اللغة لا علاقة لها إلا بالسمع، نقول: إننا إذا أتينا ب طفل عربي وأخذناه بعد ولادته إلى بريطانيا مثلاً، بحيث لا يسمع إلا الانجليزية فإذا حاولت أن تتحدث معه باللغة العربية فإنه لا يفهمك، مع أنه عربي الأصل، من أبو أم عربيين، ولكنه لا يستطيع أن ينطق حرفاً واحداً من اللغة العربية لأنه لم يسمعها، فإذا جئنا ب طفل إنجليزي وأخذناه إلى بلاد العرب فإنه سنيشاً وهو يتكلم اللغة العربية، ولا يعرف حرفاً من الانجليزية، مع أنه من أصل إنجليزي، وإذا أتينا ب طفل أفريقي وكررنا معه نفس المحاولة فسنحصل على نفس النتيجة، إذن فاللغة لا علاقة لها بالأصل ولا باللون ولا بأي شيء آخر غير السمع.

وآدم حين خلقه الله وخلق حواء، لا بد أنه كان بينهما طريقة للتفاهم والا كيف تفاهموا؟ لا بد أنه كان بينهما لغة ما تفاهموا بها، ثم جاء أولاد آدم فكان بين آدم وحواء وأولادهما لغة للتفاهم سجلها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم في قوله تعالى:

{ واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق، اذ قريبا فربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأفتنك
قال انما يتقبل الله من المتقين} المائدة 27.

اذن فالثابت يقينا من القرآن الكريم أنه كانت هناك وسيلة للكلام بين آدم وأولاده، وإذا كان قد اثبتنا
بالدليل المادي أن الإنسان لا يمكن أن يتكلم إلا إذا كان قد سمع، وأن اللغة أساسها السمع، فلا بد
أن آدم قد سمع حتى يستطيع أن يتكلم، فإذا قال لنا الله سبحانه وتعالى:
(وعلم آدم الأسماء كلها) البقرة 31.

اذن فلا بد أن يكون آدم قد سمع الأسماء من الله سبحانه وتعالى، وبما أن السمع هو وسيلة النطق
بالكلام، فكان سماع آدم للأسماء من الله هو الذي علمه الكلام بدليل أن الله سبحانه وتعالى قال:
(وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أتبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين
قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أتبئهم بأسمائهم، فلما أتبأهم
بأسمائهم قال ألم أقل لكم أني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون
البقرة 31).

أي أن آدم تكلم وأنباء الملائكة بالسماء التي علمها الله له، وإذا كان آدم نطق وتكلم فلا بد أنه سمع
من الله سبحانه، وحواء سمعت من آدم فتكلمت، وأولاد آدم وحواء سمعوا منها فتكلموا.

الكلام من السماع

هناك بعض الناس يقول: إن الإنسان الأول لم يكن يتكلم، وإنما كان يتفاهم بالإشارة ثم بعد ذلك
تكلم، ونقول: إن هذا غير صحيح، لأن أي إنسان لكي يتكلم لا بد أن يسمع أولاً، فمن سمع أول
إنسان تكلم سواء كان آدم أو من بعده؟ إن الكلام لا يأتي إلا بالسماع، والذين يتفاهمون بنفس
الأسلوب، إلا إذا سمعوا من غيرهم، حينئذ تبدأ عندهم ملقة الكلام، والصم والبكم الذين يعالجون
من هذا الداء، إذا لم يسمعوا فلن يتكلموا.

فإذا قال أحدهم: إن البشر يتحدثون بلغات مختلفة ولهجات مختلفة، نقول: إن هذا دليل لنا وليس
عليها أن اللغة مصدرها البيئة أو أي شيء آخر، وأن الكلام ليس صفة وراثية تولد مع الإنسان
ولكنها صفة سمعية فلا بد من السمع أولاً.

وهكذا تعطينا القرآن كلها أن الله سبحانه وتعالى هو الذي علم البشرية الكلام بأن علم آدم الأسماء
كلها، ولا يمكن أن تكون هناك بداية - علما ولا عقلا - إلا هذه البداية التي ذكرها الله سبحانه
وتعالى في القرآن الكريم.

لفظ الجلالة واعجاز التحدي

وإذا كنا نريد أن نمضي في هذا الاعجاز فأمامنا مجالات كثيرة، لفظ الجلالة، كلمة "الله" سبحانه
وتعالى، من أين جاءت، إن الثابت لغوياً أن المعنى لا بد أن يوجد أولاً ثم يوجد اللفظ والاسم، فإذا
لم يوجد المعنى فلا يوجد اللفظ في اللغة، وكل الاختراعات الحديثة التي لم تكن البشرية تعرف

عنها شيئاً، لم توجد لها أسماء إلا بعد أن وجدت وعرفناها، والانسان لا يستطيع أن يفهم الكلام الا اذا كان المعنى موجوداً في عقله، ولذلك فان المجامع اللغوية في العالم تضيف كل فترة ألفاظاً لمعانٍ لم تكن موجودة ثم وجدت، فكان لا بد أن توجد لها ألفاظ تعبر عنها.
وعلى أي حال فان العقل البشري يعجز عن فهم أي لفظ اذا لم يوجد في عقولنا المعنى أولاً، حتى انك اذا حدثت أي انسان بلفظ لا يفهمه، فلا بد أن يعرف المعنى أولاً ثم بعد ذلك يفهم اللفظ، ولكن الله سبحانه وتعالى غيب عنا، لم يره أحد، ومع ذلك فان لفظ الجلالة موجود في كل لغات العالم، والعقول كلها تفهمه، فكيف يمكن أن يحدث هذا؟ الا اذا كان في داخلنا الایمان الفطري الذي يعرفنا معنى لفظ الجلالة.

وهنا تأتي الآية الكريمة لتبيّن لنا هذا الاعجاز فيقول الله سبحانه وتعالى:{واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألسنت بربكم قالوا بلى شهدنا} الأعراف 172.
اذن فلا بد أن الله قد أشهادنا على نفسه، وعندما ذكر لفظ الجلالة فهمناه، ولا بد ان الله سبحانه وتعالى أشهد البشرية كلها، لأنه لا توجد لغة في العالم ليس فيها لفظ الجلالة، بل ان التحدي والاعجاز الالهي يمضي أكثر من ذلك، فيقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

{رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته} مريم 65.

وهكذا أخبرنا الحق سبحانه وتعالى ان لفظ الجلالة لن يطلق على أحد غير ذاته الكريمة، وهكذا تحدي الله البشرية كلها في أمر اختياري، فالاسم هو شيء من اختيار الانسان، ويوجد في هذا الكون الكفرة والملحدون وشياطين الانس وغيرهم، فهل سمعت عن واحد سمي نفسه الله، أو اسمى ابنه الله؟ لم يحدث ولن يحدث، لأن الحق سبحانه وتعالى اختص بهذا الاسم ذاته الكريمة، فلا يمكن لبشر أن يتخطى مراد الله ليطلق لفظ الجلالة على نفسه أو أحد أولاده، بل ان الذين ادعوا الالوهية مثل فرعون وغيره، ونصبوا أنفسهم آلله يعبدون من دون الله، لم يجرؤ أحد منهم ولم يخطر على باله أن يسمي نفسه الله.

وهكذا جاء التحدي للبشر جمِيعاً في أمر اختياري ليؤكد للدنيا كلها أن أحد لا يستطيع أن يخالف مرادات الله في كونه، ولو كانت هذه المخالفة في منطقة الاختيار للانسان، ولو كانت هذه المخالفة من ملحد محارب لدين الله يريد الاضلال في الأرض، أيوجد دليلاً مادياً أكبر من هذا؟

التعداد دليل مع القرآن

فإذا تركنا الأدلة اللغوية فاننا سنجد هناك دليلاً احصائياً على وجود الحق سبحانه وتعالى، فالله سبحانه وتعالى يقول:

{ يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، ان اكرمكم عند الله أتقاكم } الحجرات 13.

الحق سبحانه وتعالى يخبرنا أن الخلق بدأ من ذكر وأنثى وهما آدم وحواء، ثم جاء منها كل هذا الخلق الذي نراه، الدليل الایمني على ذلك أن الله هو الذي قال، والدليل المادي على ذلك هو أن علم الاحصاء يقول ذلك، فإذا تتبعنا البشر في الكون نجد أن تعداد الناس في العالم اليوم يصل إلى كذا بليون نسمة.

فإذا فرضنا مثلاً أن تعداد سكان العالم اليوم خمسة آلاف مليون، فكم كان عدد سكان العالم منذ قرن مضى، سنجد أن تعدادهم أقل، كان مثلاً أربعة آلاف مليون ومنذ ثلاثة قرون مثلاً كم كان عدد سكان العالم؟ طبعاً كانوا أقل.

ومنذ عشرين قرناً من الزمان كم كان عدد سكان العالم؟ نقول انهم كانوا بضعة ملايين، ومنذ ثلاثين قرناً من الزمان كم كان عدد سكان العالم؟ نقول كانوا ملبيون أو ثلاثة، اذا كلما عدنا بالزمان الى الوراء نجد أن عدد البشرية يتناقص، وكلما تقدمنا بالزمان نجد أن عدد البشرية يتزايد، أليس هذه حقيقة احصائية.

أيستطيع أحد من الماديين أو غير المؤمنين أن ينكر أنه كلما عدنا بالزمان الى الوراء، فإن عدد البشر يتناقص؟ وإذا كانت هذه القاعدة المعترف بها، فمعنى ذلك أنه كلما عدنا الى الماضي تناقص عدد البشر، ويظل عدد البشر يتناقص ويتناقص حتى نصل الى نقطة البداية التي بدأت عندها حياة البشر، فتكون هذه النقطة من ذكر وأنثى.

اذن التناقص في الأعداد البشرية الذي عرفناه وسجلناه بالاحصاءات لا بد أن ينتهي الى البداية التي بدأ منها تكاثر هذا الخلق وهما الذكر والأنثى، وكلما مر الزمن زادت أعداد البشر حتى وصلنا الى تعداد العالم الآن.

فلو أن تعداد البشر كان يتناقص مع الزمن، أي أن الدنيا بدأت بألف مليون انسان وانتهت في عصرنا بمائة مليون، لكن ذلك يؤكد لنا أنه من المستحيل أن تكون البشرية قد بدأت بذكر وأنثى، لأن الدليل العلمي سيكون في هذه الحالة شاهداً على أن ذلك لا يمكن أن يحدث.

ولكن كون البشر يتزايد عددهم مع مرور الزمن ويتناقص عددهم كلما عدنا الى الوراء في الماضي، حتى أنه في العصور الأولى لم تكن الا أجزاء صغيرة من الأرض يعيش فيها الناس، والباقي لا يوجد فيه أحد فهذا يعطينا الدليل على أن البداية كانت من ذكر وأنثى.

فإذا ذهبنا الى التاريخ فنجد فيه الدليل المادي على وجود الله سبحانه وتعالى، وعلى علمه وعلى معجزاته، اقرأ قوله تعالى في هذه السورة الكريمة:

{ ألم تر كيف ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميمهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول } الفيل 1-5.

هذه معجزة لم يأت بها رسول الله، ولم تنزل لتبني الایمان على قوم نبي كأن يدعوه قومه للإيمان وهم لا يؤمنون، ولكنها حدثت لأثبات تأقسيمة والحمامة لبيت الله الحرام.

ولقد ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم في عام الفيل، وكانت هذه المعجزة علامه على أن دين الله الذي سينزل على هذا الرسول اذا تخلى عنه البشر جميعاً، فان الله جل جلاله سيحميه ويحفظه.

والقصة معروفة وبطلها ملك الحبشة في ذلك الوقت أبرهه، الذي بنى بيتاً ليحج اليه الناس بدلاً من الكعبة، وجاء بعض الأعراب وألقوا فيه القاذرات، فصمم أبرهه أن ينتقم بهدم الكعبة، وأخذ جيشاً

ضخماً وعدها من الأفیال وذهب الى مكة، فلما رأى أهل مكة هذا الجيش هربوا وفروا، فجاء الطير وألقى عليهم بحجارة من جهنم قضت على أبلاهة وجيشه وأفیاله في دقائق. القصة يرفض تصديقها عقل غير المؤمن، اذ كيف يمكن لطائر صغير أن يقضي على جيش من الفیال، بينما لو وقفت مئات من الطير على جسد فیل واحد لا يحس بها.

ولقد توقف بعض العلماء عند هذه السورة الكريمة فقالوا: ان الله أرسل جراثيم لتقضى على أبرهة وجيشه، وكأنهم يريدون أن يسلّهوا الأمر على الله، مع أن الله على كل شيء قادر، نقول: لقد ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم في عام الفيل، وبعث في الأربعين، ونزلت هذه الصورة في مكة بداية الدعوة الإسلامية، وكان المغار هم القوة والعزّة، والمسلمون هم القلة والضعف، وكان الكفار يبحثون عن أي شيء للطعن في الدين الإسلامي.

نقول: ان هذه السورة نزلت في مكة، والرسول صلى الله عليه وسلم كلفه الله بالرسالة وعمره أربعون سنة، أي أن هناك من أهل مكة من كان يبلغ الخامسة والخمسين والستين من عمره والسبعين وقد شهدوا هذه المعجزة، ورأوها رؤية العين، ولو أن الطير لم تأت وجيش أبرهة لم يتم افناوه في لحظات، لقال هؤلاء الناس: ان هذا الكلام غير صحيح، ولقد كانوا موجودين في مكة في هذا الوقت ولم نر طيرا جاءت ولا جيشا أفقى، ولطعنوا بذلك في الإسلام وفي القرآن وفي أنه كلام الله ولكن كون الطير جاء، وكون المعجزة تمت، لم يجرؤ أحد من أعداء الإسلام أن يطعن فيه.

وهكذا يعطينا الحق سبحانه وتعالى دليلاً من التاريخ لمعجزة مشهودة حدثت، ويعطينا معها الدليل على صدق حدوثها، فإذا أضفنا إلى ذلك ما ذكرناه سابقاً عن قوله تعالى:

{الم غلبـت الرـوم فـي أدنـى الـأرض وـهـم مـن بـعـد غـلـبـهـم سـيـغـلـبـوـن} الروم 1_3.

لوجدنا دليلاً تاريخياً آخر، ثم يأتي بعد ذلك دليل ثالث يضاف إلى هذه الأدلة التاريخية.

شهادة التاريخ

نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى عندما يذكر في القرآن الكريم شيئاً عن حاكم مصر في عصر موسى عليه السلام، كان يسميه فرعون، أي أن الذين حكموا مصر أطلق عليهم القرآن اسم الفراعنة، فيقول تعالى:

{قال ياقوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهر تجري من تحتي أفلأ تبصرون} الزخرف 51.

وهذا يتفق مع التاريخ أن الذين حكموا مصر في العصور القديمة هم الفراعنة، اذ حكام مصر القدامى فراعنة، والقرآن سماهم فراعنة، فإذا أتينا إلى سورة يوسف عليه السلام وجدنا أن الله سبحانه وتعالى، وهو يروي لنا قصة يوسف في مصر، لم يلقب حاكم مصر بفرعون، بل لقبه بالملك فقال تعالى:

{وقال الملك انتوني به أستخلصه لنفسي} يوسف 54.

وقوله تعالى: {وقال الملك اني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف} يوسف 43.

اذن ثابت من القرآن الكريم أن يوسف عاش في مصر، وأنه خلال وجوده في مصر اختلف في القرآن الكريم اسم حاكم مصر، فلم يكن يلقب بفرعون، بل لقب باسم الملك، ويمضي الزمن ويكتشف حجر رشيد ثم تحل رموز اللغة المصرية القديمة، ويثبت أن يوسف عليه السلام عاش في مصر في الفترة التي احتلها فيها الهكسوس، وأن هؤلاء لم يكونوا من الفراعنة، وأن حاكمهم

كان يطلق عليه الملك، ولم يكن يطلق عليه اسم فرعون، وأن المصريين طردوا الهكسوس، وعاد الفراعنة إلى الحكم مرة أخرى، من الذي أبدأه مهداً عليه الصلاة والسلام بهذه الحقائق التاريخية التي لم يعرفها العالم إلا في الفترة الأخيرة بعد اكتشاف حجر رشيد؟ وكيف علم أن يوسف كان في عهد الهكسوس وأن موسى كان في عهد الفراعنة.

وهكذا يأبى الله تعالى إلا أن يعطينا الدليل المادي التاريخي على اعجاز هذا القرآن، وعلى أن الله يعلم ما في الدنيا والآخرة، وأنه بكل شيء عليم، حتى يظهر ذلك لعباده بالدليل المادي على اعجاز هذا القرآن، وعلى أن الله يعلم ما في الدنيا والآخرة، وأنه بكل شيء عليم، حتى يظهر ذلك لعباده وبالدليل المادي جاء بحقيقة تاريخية لم سكن يعلمها أحد من البشر وقت نزول القرآن، وذكرها في متاباه العزيز، حتى إذا تقدم الزمن وكشف الله لخلقه ما شاء من علمه، وفي الوقت الذي تظهر فيه هذه الحقيقة وتخرج إلى علم البشر، حتى تكون معجزة من معجزات القرآن ويظهرها الله، بعد نزول القرآن الكريم بعدة قرون.

على أن الله سبحانه وتعالى قد أعطى من أسرار ملوكه ما شاء لمن يشاء، وكشف عما شاء من علمه لمن شاء، ولكنه احتفظ لنفسه بعلم بدء الحياة أو الخلق، وبعوامل استمرار الحياة، وبنهاية الحياة وهي الموت، فمهما تقدم العلم وازدهر، وكشف الله من أسرار كونه، فإن الله هو الذي يحي ويميت، وسيظل يحي ويحيى ويميت إلى أن تأتي الأهرة و يتم الحساب، وتقبض روح ملك الكفر فلا يصبح هناك موت ولكن خلود، أما في الجنة وأما في النار.

الحياة من الله

تأمل قول الله تعالى في سورة الشعراء:{ الذي خلقي فهو يهدين والذى هو يطعنى ويسقين وادا مرضت فهو يشفين والذى يميته ثم يحيين } الشعراة.
وادا اردنا أن نتأمل ما جاء في هذه الآيات ونستعرض الاعجاز فيها بایجاز نجد أن قضية الخلق محسومة لله سبحانه وتعالى، فهو وحده الخالق، والكل عاجز، ولا أحد يستطيع أن يدعي أنه يقدر على خلق شيء ولكن قضية الموت فيها جدل فإذا قرأت قوله تعالى:

{ اذ قال ابراهيم ربى الذي يحي ويحيى قال أنا أحى وأميت } البقرة 258.

والآية تروي قصة الحوار بين من آتاه الله الملك وابراهيم عليه السلام، فلما قال ابراهيم: ربى يحي ويحيى، أخذت من آتاه الله الملك العزة فقال: أنا أحى وأميت، وجاء يرجل من رعيته، فحكم عليه بالاعدام وقال: هو ميت، ثم عفا عنه وقال: أحبيته!!!.

نقول: ان الناس لا تنتبه للفرق بين القتل والموت، فالقتل هو افساد لجسد الانسان يجعل الجسد غير صالح لبقاء الروح فيه فتغدره، ولكن الموت هو اخراج الروح من الجسد دون هدم أو افساد للجسد، ولذلك فرق الله بين الاثنين في القرآن الكريم فقال:

{ وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفنان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم } آل عمران 144.

وقال جل جلاله:{ ولئن متم أو قتلتם لالي الله تحشرون } آل عمران 158.
اذن الموت لله وحده، وهو الذي يحيى، ولكن القتل وهو غير الموت يمكن أن يتم على يد عباد الله.

و لأن الله هو الذي يميت، فلا أحد ينجو من الموت أبداً، لأن امر الله نافذ على خلقه، ولأن الإنسان يمكن أن يتم على يده القتل، فهناك من ينجو من القتل مرة ومرات لأن أمر الإنسان غير نافذ في الكون، ثم تقول الآية الكريمة:{والذي هو يطعني ويسقين} .

ويلاحظ في الآية الأولى أن الحق سبحانه وتعالى لم يستخدم أسلوب التأكيد فقال:{الذي خلقني فهو يهدين} ولم يقل هو الذي خلقي لأنه لا أحد ينزع الله في الخلق ولكن الطعام والشراب جعلهما الله أسباباً للإنسان، فجاء التأكيد هنا ليلفتنا إلى أن هذه الأسباب ليست هي الأصل، وإنما كل شيء من الله، فالحبة في أي نبات خلقها الله سبحانه وتعالى ووضع فيها خصائصها، وخزن فيها الغذاء الذي يلزمها حتى تستطيع جذورها أن تضرب في الأرض لتأخذ منها عناصر الحياة وهو الذي أعطاها خصائصها، وخلق لها الأرض التي تزرع فيها، وأنت تضع الحبة في الأرض فتظل تتغذى على المخزون فيها من الغذاء الذي وجد فيها بقدرة الله، ثم بعد ذلك تمتض من عناصر الأرض ما يلزمها فقط تترك الباقي ثم تظل تنمو وتتمو حتى تثمر بقدرة الله وليس بجهد البشر، فكأن الطعام كله من الله سبحانه وتعالى.

والشراب أيضاً من الله

فإذا جئنا للشراب نجد أن كل ما يشربه الإنسان هو من الله سبحانه وتعالى، فالماء ينزل من السماء علينا سائغاً بقدرة الله، والبن نأخذه من الحيوان وهو مخلوق بقدرة الله. وقد حاول العلم أن يصنع البن فجاء بالبن الطبيعي وحلله إلى عناصره، ثم جاء بهذه العناصر وخلطها مع بعضها البعض بنفس النسب الموجودة في اللبن الطبيعي، ثم جاء بعشرين فأرا سقى عشرة منها اللبن الطبيعي والعشرة الباقية سقاها اللبن المصنوع من نفس العناصر، فنمت الفتران التي سقيت اللبن الطبيعي وماتت الفتران التي سقيت اللبن الصناعي.

ومازال العلم حتى الآن عاجزاً عن أن يصنع نقطة لبن واحدة، بل إن بعض دول العالم التي تعاني نقصاً شديداً في اللبن لا تستطيع أن تحل الأزمة، فتحرم اللبن على الكبار ليكون متوفراً للصغار، ومنها الاتحاد السوفيتي والصين وكوريا الجنوبية وغيرها من دول العالم، ومن الاعجاز الالهي أن هذا اللبن تعطيه لنا حيوانات يجري في عروقها الدم، فلا يختلط الدم والبن أبداً، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

{وان لكم في الأنعام لعبرة تسقينكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصاً سائغاً للشاربين} .
النحل 66.

على أن العلم البشري كله عاجز حتى الآن عن أن يسقي الناس الماء أو اللبن، فالإنسان الذي وصل إلى القمر عاجز عن أن يصنع ترعة صغيرة، أو كوباً من اللبن، أما باقي الأشياء التي يشربها الإنسان فهي ما أوجدها فيها من ثمر يضاف إليها الماء أو لا يضاف.

الشفاء والمرض من الله

فإذا جئنا إلى قوله تعالى:{و اذا مرضت فهو يشفين} الشعراة 80.

نجد أن هناك جدلاً كثيراً حول هذه الآية، فالناس يقول ان الطبيب هو الذي يشفى! ولكن الحقيقة هي أن الشفاء بيد الله وحده، وأن الطبيب يعالج فقط، وقد يأتي على يده الشفاء، وقد يخطئ في العلاج فيكون على يده الموت.

والله سبحانه وتعالى جعل لكل داء أعلاه في الشفاء، ولذلك يحدث كثيراً أن طبيباً مبتدئاً يكتب الدواء الصحيح لمريض عرض نفسه على أكبر الأطباء فلم يعرفوا لدائه دواء وفي هذه الحالة قد يتعجب الناس ويقولون إن حديث الطبيب الحديث التخرج أعلم من أستاذته!

نقول لهم: هذا تفسير خاطئ فالأستاذ أعلم من تلميذه، وهو الذي علمه، ولكن قدر الله سبحانه وتعالى بالشفاء جاء فكشف الله عن الداء لهذا الطبيب المبتدئ فكتب الدواء وتم الشفاء. وليس معنى أن الله هو الشافي إلا نلتمس الوسيلة للعلاج، فنحن في هذه الدنيا أمرنا الحق سبحانه وتعالى أن نأخذ بالأسباب ثم بعد ذلك نتوكل على الله في النتائج.

والآية الكريمة تقول بعد ذلك: {وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يَحْيِنِي} الشعراة 81.

ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى لم يستخدم أسلوب التأكيد فيقول: وهو الذي يُمِيتُنِي ثُمَّ يَحْيِنِي، لأنه لا أحد يستطيع أن ينزع الله في الموت أو البعث، فإذا جاء الموت فلا أحد يستطيع أن يتأنى عليه، أو يقول: لن أموت، وإذا جاء البعث، فالله وحده القادر على بعث الموتى، وبذلك نكون قد أثبتنا بالدليل المادي أن بداية الحياة واستمرار الحياة ونهاية الحياة، هي من قدرات الله سبحانه وتعالى وحده.

وإذا كنا قد جئنا إلى نهاية هذا الكتاب فنرجو من الله سبحانه وتعالى أن يكون هدانا إلى ما يثبت الإيمان في القلوب، وما يرد على أولئك الملحدين الذي يدعون أنه لا توجد أدلة مادية في الكون على وجود الله، ونرجو من الحق جل جلاله أن يتقبل منا، أنه هو السميع العليم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

انتهى النقل والحمد لله
بيروت 11 تموز 2002
الموفق في 1 جمادي الأولى 1423

أخوكم الإسلامي مشرف وصاحب موقع الاسلامي
www.islammi.8m.com
islammi@hotmail.com

1	المقدمة.....
2	الفصل الأول لماذا الأدلة المادية والكون.....
2	الأدلة نوعان.....
4	دليل الخلق.....
6	التحدي الالهي في الخلق.....
7	دليل الثابت والمحرك
8	طلاقة القراءة في الكون.....
11	الفصل الثاني يقول الله سبحانه وتعالى " وفي أنفسكم أفلأ تبصرون ".....
11	آيات الله في خلق الإنسان.....
13	أين الروح في جسده؟
13	قدرات الإنسان.....
15	الاختيار والقدرة.....
15	دليل الضحك والبكاء
17	أفعال الإنسان
18	اعجاز القرآن
19	الإنسان والتميز
21	الفصل الثالث الدليل الغيبي.....
21	الغيب نوعان.....
23	أمثلة من القرآن.....
25	دليل آخر.....
26	الوجود وادراك الوجود
28	الغيب حقيقة
29	الله أخبرنا بكنوز الأرض.....
31	الفصل الرابع الآيات الأرضية ودلائلها
31	وفي الأرض آيات.....
33	العلم كاشف قوانين الكون
34	كعنى كروية الأرض
35	الليل والنهر و جدا معا
38	السير في الأرض
40	معجزة الخلق في الشجر
41	الفصل الخامس الأدلة المادية في أصل الكون وأصل الإنسان
41	في الأنفس والأفاق
42	خلق الجنين في القرآن
44	النطفة والوراثة
46	الأصل الواحد للكون
47	اعجاز يتلوه اعجاز
47	السماء والدخان وأصل الخلق
48	وفي البحر أيضا
51	الفصل السادس وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد
51	اعجذارات القرآن
52	اللغة تدل على الوجود
53	الكلام من السماع
53	لنظر الجلالة واعجاز التحدي
54	التعدد دليل مع القرآن
56	شهادة التاريخ

57	الحياة من الله
58	والشراب أيضا من الله
58	الشفاء والمرض من الله

Indexing and to PDF format via AH 04/06/21